

عمرو العامري



مذكرات ضابط سعودي

ليس للأدميرال من يكاتبه



عمرو العامري

مذكرات ضابط سعودي

ليس للأدميرال من يكاتبه



عمرو العامري: مذكرات ضابط سعودي

Book: Mothekrat Ghabet Saudi

الكتاب: مذكرات ضابط سعودي

Author: Umro Al-Amery

المؤلف: عمرو العامري

Cover: Ahmed Aloraij

لوحة الغلاف: أحمد العريج

First Edition: 2012

الطبعة الاولى ـ منقّحة ٢٠١٢



طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Email: tuwa@london.com

Tel: 009662108111 - 00966505481425

التوزيع: منشورات الجمل

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2012*

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ـ أكتبي مذكراتك يا إزابيل.

ـ أسرتي لا تحب أن ترى نفسها معروضة أمام الملأ.

ـ لا تهتمي بشيء إذا كان لابد من الاختيار بين كتابة قصة أو إغضاب الأقارب، فإن أي كاتب محترف سيختار الخيار الأول.

إزابيل اللندي

المقدمة

في أدبنا العربي، يعد كتاب (الاعتبار) للأمير أسامة بن منقذ أول مصنف في فن المذكرات، إذ عاش مؤلفه في القرن السادس الهجري وتوفي سنة «٥٨٨».. ورغم قدم التجربة إلا أن تراثنا لم يحفل بهذا اللون من أدب السيرة الذاتية، فندر أن نعثر على مصنفات مستقلة في بابه ليعتبر لوناً غريباً وشاذاً في الأدب العربي، الذي صوب اهتمامه نحو الجماعة، واعتبرها مادته الأولى ليكرس تخليد القبائل والشعوب والأعراق، مقابل التجاهل التام للتجارب الفردية المستقلة فيتخطى نجاحاتها ومكتسباتها على الصعيد الشخصي، ما لم تكن ضمن سياق المجموعة وبما لا يخرج بها إلى ما يشبه تمجيد الفرد وتخليده.. وفي الأدب العالمي يعد كتاب (الاعترافات) لجان جاك روسو مدرسة في أدب السيرة الذاتية منذ القرن الثامن عشر الميلادي وإلى يومنا لم يبزه من الذروة التي يتسنمها مصنف آخر فيما أعلم، وبالعودة إلى محيطنا العربي فقد ظل أدب المذكرات غائباً حتى العصر الحديث بحيث أخذت المطابع ودور النشر تقدم أدب السيرة الذاتية إلى جانب الرواية

والقصة القصيرة كأجناس أدبية معاصرة.. وبدأت المكتبة العربية تفرد رفاً في علم الاجتماع يحمل اسم أدب السيرة الذاتية، نال حظوة من قبل المتابعين الذين يجدون في تلك السير خلاصة للتجارب العميقة، وقصصاً للكفاح والمثابرة، والصبر والجلد، المؤدي للنجاح.. وبرزت عناوين مذكرات أهمها «الأيام» لعميد الأدب العربي طه حسين في ثلاثة أجزاء.. وانتشرت قبلها وبعدها المذكرات لمشاهير المجتمع العربي من القادة والساسة ورجال الأدب والفن.. حتى غدا تقليداً سار عليه الأغلبية.

على المستوى المحلي، ظهرت العديد من العناوين التي تحمل طابع المذكرات الشخصية لأدباء ومثقفين تعرض للذات وتغوص في الأنا دون أي إيغال أو تماس مع الحيز المسرحي، بسبب الغياب التام لثقافة النقد، يتساوى فيه الكاتب والمتلقي على حد سواء.. فالكاتب لم يسبق أن مارسه بحدوده وضوابطه لا في السر ولا في العلن.. أما المتلقي فيقع في إشكالية المصطلح أهو (القذف)؟ أم هو (التطاول)؟ إلى آخر ما هنالك من أوصاف تتماهي بينها النقد الذي يقتات عليه النجاح في الغالب.

وبين أيدينا اليوم عمل إبداعي من طراز فريد، فرغم انحيازه لشخصية العامري إلا أنه يستحثك على نبش الماضي لتستل من خلاله مشاهد مطابقة لتلك التي تقرأها.. انطلاقاً من تفاصيل القرية بنمنماتها الدقيقة.. إلى مصادر الثقافة المبكرة.. والسفر والاغتراب،

وتجارب النجاح والفشل.. والدهشة والخيبة، حتى لكأنه يكتب نيابة عن شريحة واسعة من قرائه، وتلك وظيفة الأدب الرفيع بتجاربه الفذة.. بحيث يمكنك العثور على قصاصة ما تخصك. الجوانب المتعددة لشخصية عمرو لا أجدها منحت المساحة الكافية من هذا السرد التسجيلي، لتبقى الشخصية المحورية أو لنقل: البطولة المطلقة، للضابط البحري، ومسيرته إلى أن رغب التقاعد أدميرالاً، ولا خلاف في أن قلم الأديب القاص عمرو العامري هو الذي قدم لنا الأدميرال فصولاً مقروءة، وذلك وحده كافياً لأن نلمس جانباً آخر من شخصية العامري بكل وضوح.

ولعليّ أجزم هنا بأن حلمه الجميل الذي تبدد وأنهار جراء عدم قبوله في كلية الملك فيصل الجوية، قد ترك أثراً عميقاً في نفسه إلى الحد الذي اعتبره إخفاقا ظل يلازمه طويلاً ـ رغم نجاحاته كضابط بحري ـ لتظل تلك الحادثة مدعاة لجلد الذات عند كل مواجهة مع الحياة، معتبراً إياها سذاجة وضيق أفق، ضاعت بسببها فرصته الوحيدة في التحليق والانعتاق من سطوة الجاذبية.. إنه يقول: «ومات داخلي للأبد القروي البسيط الذي لم يتعلم أبداً طرح الأسئلة.. القروي الذي فشل يوماً في اختبارات القبول الطبية في كلية الملك فيصل الجوية ولم ينجح سوى في عمى الألوان». هذا المنعطف الحاد دفع به للمقدمة دون أن يدرك.. والإخفاقات

دائماً تكون جليلة في عرف العظماء مهما كانت زهيدة، ولن تعوضها سوى نجاحات موازية في الكتلة والوزن.

يقدم العامري هنا عرضاً أدبياً رشيقاً هو الأقرب إلى كثافة النص الشعري أو هو الفن القصصي الذي يحيل إلى النص الغائب مراراً، على غرار قوله: «لكن لم أجد كلمة مناسبة أملأ بها الثلاثة والعشرين عاماً التي تصرمت».. كما جاء النقد في إهاب ساخر ومؤثر يومئ في ومضات خاطفة على شاكلة عبارته هذه: «ووجدت أيضاً بعضها كرسه المال.. وبعضها كرسته السلطة.. وأخرى كرسها الجهل الكبير والابتذال..وما أكثر ما رأيت من ذلك في شرقنا العربي النائم من الماء إلى الماء».

تفاصيل كثيرة تستوقف القارئ لهذه المذكرات، غير أن الذي يشد الانتباه ويدعو للتأمل، ما أبداه الأدميرال من عاطفة سخية ونبيلة تجاه المرأة بوجه عام.. ومكانة الأم تظل فوق كل مقارنة، وهي التي رحلت مبكراً وتركت جرحاً عميقاً لا يزول، وبرغم ذلك فإنها لا تكاد تظهر على المسرح بمفردها إلا فيما ندر، وكانت إطلالتها دوماً بمعية نساء القرية الكادحات.. (ولا يكرمهن إلا كريم) ثم هاهي شقيقته مريم التي حظيت رسالته إليها بالإيثار لتأخذ طريقها للنشر هنا، وذلك ربما كانت الأم الثانية التي رعته بعد رحيل والدتهما، وهي رسالة يبث فيها لواعج الشوق ووحشة الاغتراب يبدأها بقوله: «العزيزة مريم.. سلام عليك، تكبرين ولا

تكبرين في ذاكرتي.. تبقين لي اليقين الجميل في دنيا تتغير كل يوم والبقية الباقية من زمن جميل لن يستعاد».. واستأثرت الزوجة بمساحة واضحة من هذا السرد، بوصفها الأقرب إليه مكاناً وعاطفة، إذ هي الشريك الحقيقي لمشواره الحافل، مستدعياً قصة تجربته الأولى وما اعتراها من إخفاق فقال بأسى: «والآن ومن هذا البون الشاسع من العمر.. حيث رؤية الأشياء بحيادية ممكنة.. لا أشعر نحوها بغير الأسف.. وهي لا تقرأ ولن تقرأ هذا الكلام أبداً وإلا كنت طلبتها غفراناً لا أستحق».

وعندما تمت ترقيته إلى رتبة أدميرال (عميد).. كان في الولايات المتحدة الأمريكية ووقفت إلى جواره زوجته السيدة وفاء العامودي في حضور رسمي لهذه المناسبة.. ليس لأجل الحضور أتت وإنما اشتركت فعلا في مراسم التعليق وقامت بتثبيت رتبة العميد على كتف زوجها الأيسر كتقليد أمريكي، ولتكن بذلك المرأة السعودية الأولى ـ إن لم تكون العربية ـ التي تحظى من قبل زوجها بمثل هذا التكريم والاعتداد الذي وصفه بقوله: «وضع الفريق أول كنث الرتبة على كتفي الأيمن.. ووضعت وفاء الرتبة الأخرى على كتفي الأيسر»، إلى أن يقول: «وعندما تتحدث وفاء عن أجمل اللحظات في حياتها.. تقول: إن تلك اللحظة واحدة من أجمل أيامها.. وأظنها السعودية الوحيدة التي فعلت ذلك ربما لأن زوجها نصف مجنون».. والمرأة في مجتمعاتنا تولد إنسانة ذكية جميلة، فيصيرها

الرجل هامشية خاملة مسلوبة القوى والحواس، أو هي كذلك تبدو، فتعيش وتموت في السر، ويسقط اسمها من سجلات التاريخ كما أسقطه بعض الرجال قبل ذلك عندما اعتبروه سوءة لا يجب الإتيان على ذكره.. وقلة هم الرجال الكرماء مثل عمرو العامري الذين يدلون بشهاداتهم عن المرأة على مسمع من الدهر حينما قال: «وإذا كان هناك من معجزة فهي من صنعها.. أنا كنت ومازلت فقيراً من المعجزات». ورغم أننا لم نرزق بأطفال فإننا لم ننظر لذلك أبدا كمعضلة تسمم حياتنا بقدر ما كان هدية من السماء.. حيث بقينا خفافاً من القيود ومن قلق الخوف على ما نملك، مبذولين لبعضنا وأكثر، سافرنا معاً شرقاً وغرباً وتقاسمنا شجن الاغتراب ولحظات السعادة وتجولنا في شواطئ وغابات على مساحة الكون وصنعنا صداقات باتساع الدنيا ونزلنا بلاداً سحرية بامتداد الفضاء ومازال المركب يمضي».

وقبل أن يختم مذكراته مكرساً هذا الوفاء بقوله:

وإذا كان لي ما أقوله قبل أن أطوي الصفحة الأخيرة هنا.. هو أن أعتذر من وفاء اعتذاراً بحجم هذا الفضاء إن كنت نسيتها كثيراً في غمرة الأنا والحديث عن الذات، رغم أنها كانت هناك وكانت هي محور كل شيء.

(وما كنت لأكون هنا.. وما كنت لأكتب هذا لولا أنها كانت

ومازالت معي.. رفيقة لا تعرف من كتاب العمر سوى الغفران ولا تعرف من مفردات الحياة سوى العطاء دون حدود ودون انتظار).

وإلى هنا سأدع القارئ الكريم يبحر بنفسه مع هذا السرد الشيق وليصطاد الدهشة من عمق التجربة التي يفصح عنها بحار أمضى ربع قرن يجوب بحارنا الإقليمية إلى أن أصبح الأدميرال عمرو العامري.

محمد بن مسعود الفيفي

هل يجب أن أقول أنه؟

هل أقول إنه: عندما نبدأ نقول الحكايات فذلك يعني أننا قد تقدمنا في السن.. ذلك يعني أننا كبرنا، وذلك يعني أن هناك من هم أصغر منّا.. وهذا أمر مزعج لي أنا على الأقل.. الذين يقولون إن الزمن لا يعنيهم لا أتفق معهم.. والحياة أشبه بساعات من الرمل.. تسقط ذرة ذرة..المؤلم «ربما» أن ساعة الرمل نقلبها لتعود من جديد، أما الحياة فلا تستأنف.. نعم هي أشبه بساعة رمل ولكن لمرة واحدة ووحيدة.

صحيح أننا لا نشعر بخطى الزمن الصامتة داخل أرواحنا.. غير أنه من الخارج يراها العالم كل العالم كما يقول (ماركيز) في روايته الجميلة (غانياتي الحزينات).

هل أقول: إني لم أعد أكثر من حكواتي يستمع له الرفاق إذا ما وجدوا مساحة من الوقت.. لم أعد منبعاً وغدوت قريباً من المصب.. وعدت أتلفت للوراء إذا ما أردت أن أرى الأجمل.. وشجرة تهز أغصانها الريح لتساقط أوراق ذكريها وبوحها وتذوي.

وهل أقول إني جئت أقول لكم بعضاً من هذه الحكايات حتى وإن كان البعض منها غير مسلٍ.

ولكن لا تحزنوا من أجلي أرجوكم، فسأخترع حكايات وأكاذيب صغيرة.. أكاذيب لن تغير وجه العالم ولن تؤجل طلوع الشمس في الغد..وسأقول لكم أيضاً إنها أكاذيب لأتجمل.. ولتغدو الحكاية أجمل.. إن قدرت..إن قدرت.

وهل أبوح لكم بسرٍ أيضاً؟ سأفعل سأقول لكم إن أجمل حكاياتي تلك التي لن تقال، تلك التي دفنتها في أقاصي أدراج القلب وطوحت بمفتاح ذلك الدرج إلى لا مكان.

لست بدعاً في ذلك وكلكم مثلي.. ولكم حكايات وأسرار ربما غير مسلية، وخرابيش على جدران القلب..خرابيش لم ولن يقرأها سوى الضلع الخامس من الضفة اليسرى لجدران قلوبكم.

هل خذلتكم منذ البدء..؟ لا لا أنتم أجمل من ذلك.. فقط تسلحوا معي بالصبر والتسامح وقبول القليل ولكم كل الود.

خارج الجنة

كان بيني وبين من أحبهم ثلاثة مطارات وجواز سفر..وتذكرة ذات وجهة واحدة.. وحاجز اللغة والجغرافيا والتاريخ.. كان العمر عشرين عاماً.. وربما أكثر قليلاً ولكني لا أعرف..حقاً لا أعرف وحقيقة لم يكن ذلك مهماً.

وكان العام هو الثامن والتسعون الهجري من القرن الماضي والشهر جمادي الآخرة.والفصل أوائل الصيف.. ياااااااااااااه ثلاثون عاماً وأكثر.. ما أسرع ما يتسرب العمر.

يقولون عن مرحلة ما بعد المرحلة الثانية إنها عنق الزجاجة.. حيث الخيارات متعددة والروح متوثبة والخبرة قليلة.. أما بالنسبة لي أنا القروي القادم إلى العاصمة من أعماق الجنوب المنسي، فقد كانت الضياع بمعناه الكبير.

وهو ما دفعني إلى ترك مقاعد الجامعة في أشهرها الأولى، بحثاً عن طريق مختصر للسفر والمال والانعتاق وتلبية نداءات الشباب ورؤية العالم.. العالم الذي أسمع عنه ولم أره حتى الآن.

وكانت الوجهة هي باكستان.. عبر بعثة دراسية عسكرية.

لماذا باكستان..؟ لقد كانت الخيارات في ذلك الزمن متعددة.. ولكني اخترت الباكستان.. دون وعود كبيرة ودون مشورة من أحد، فقط قال لي أحدهم: إن الذين يذهبون إلى أمريكا يضيعون ويفشلون، وكنت على استعداد لتقبل كل شيء عدا الفشل.

ورحلت دون مودع في المطار.. مطار الظهران إلى كراتشي عبر مطار أبو ظبي.

شاء قدري أن يجلس بجانبي في الطائرة طبيب باكستاني.. وفي ذلك الزمن لم يكن يأتي من الباكستان سوى الأطباء والمهندسين.. وتحادثنا بلغتي الأنجليزية المهشمة ولغته العربية المكسرة..غير أننا صنعنا حوارا في ذلك الفضاء وعرف وجهتي ومقصدي.. أو هكذا اعتقدت.

وعندما هبطت الطائرة مطار كراتشي وخرجت بعد مكاتب الجوازات.. عرفت أي عالم حنون تركته، وكم هو ناءٍ عني الآن. وكم هي طائشة خطوتي تلك ولكن لم يعد هناك مجال للنكوص هيهات لا مفر.

كان من المفترض أن يستقبلني شخص ما من قبل الملحق العسكري ليأخذني إلى الكلية ولسبب لم أعرفه أيضاً لم يحضر ووجدتني وحيداً خارج بوابة المطار بثوبي وغترتي البيضاء وحقيبة

اليد التي أمسكها بكلتا اليدين زيادة في الحرص والقلق، كأني أحتمي بها..كانها الملاذ.

لا تقعوا في فخ القياس.. العالم قبل ثلاثين عاماً ليس العالم الذي تعرفون الآن.. العالم الآن كله عند أطراف أصابعكم.. أما في ذلك العهد فشيء مختلف.. كانت باكستان في نهاية العالم.. أو هكذا كانت تبدو لي أنا القروي الصغير.

وقفت حائراً خارج المطار لا اعرف ماذا أفعل أحدق في السماء وأشجار نخيل جوز الهند والمستقبلين الذين يعانقون محبيهم ويطوقهم بعقود الورد (وكنت أول مرة أرى ذلك) وكنت حقا وحيد. ومرة أخرى يلمحني الطبيب الباكستاني الطيب ويهب لمساعدتي رغم أنه عائد من سفر طويل.. ويأخذ بيدي ويجري اتصالات عدة من كشك قرب المطار لا أعرف بمن؟ حتى أستدل على أقرب قاعدة عسكرية بحرية أخذتني بدورها إلى مكتب مساعد الملحق العسكري. وأعتذر مساعد الملحق بأنه لا أحد أبلغه بموعد وصولي.. ثم حدق في طويلاً وسألني:

ـ كم عمرك..؟

ـ عشرون

ـ هات جوازك

وسلمته جواز السفر.

سأختصر الحكاية.. فلقد وصلت أخيراً إلى الكلية.. في مساء صيفي.. وكانت الشمس تدنو للغروب والطلاب يمارسون رياضة المساء.. وآلاف الغربان تنعق في جزيرة (منورا) الصغيرة جنوب كراتشي، وكانت تفصلني عن القمري سنوات ضوئية.

وأتذكر أني وصلت متأخراً بعد رفاقي بأربعة أشهر.. أربعة أشهر أمضيتها في جامعة الرياض أدرس الجيولوجيا وخرجت من كل ذلك بمعلومة تفيد أن الصخور ثلاث أنواع: نارية ورسوبية ومتحولة ثم لا شيء.

وأتذكر أحد الزملاء الذين هبطت عليهم دون انتظار. وكيف يتحدث وهم يسألونه:

- كيف السعودي الجديد..؟

- صغيير «بتشديد الياء» ثم يضغط المسافة بين راحتيه ليبين لهم حجمي الصغير.

وما إن غربت الشمس حتى كنت رابع ثلاثة في غرفة شمالية النوافذ يصل منها صوت البحر الصاخب في ذلك الوقت من العام تشاركت فيها مع طالب سعودي وآخران أحدهما ليبي والآخر باكستاني، وكانت الغرفة قفراً من كل شيء عدا أسرة ودواليب خشبية ومروحة معلقة في السقف تمزق خيوط النور المتدلية منها وتصنع منها أشكالاً تتغير ملامحها بتغير سرعة المروحة الصدئة

التي يعبث بها التيار الكهربائي المتذبذب، فتسرع حيناً وتكاد تتلاشى أحياناً أخرى ثم تعود وتنتفض.

كان شعر رأسي قد حلق، وشاربي الصغير قد اختفى، وكذلك ثيابي وغترتي وأُلبست بنطلونا وقميصاً قريباً من مقاساتي ولكنه ليس المقاس الصحيح، ولا أتذكر من أين وكيف أُحضر فأنا لم أحضر سوى الثياب ولم أرتدِ يوماً قبلها البنطلون.

وعندما نظرت إلى نفسي في مرآة الدولاب المكسورة كدت أصعق.. فلم أعد أنا الذي كنت أنا.. لم أعد أنا بشعري الأجعد المنكوش وشاربي الصغير، وبدت أذناي أكبر ووجهي أطول من المعتاد، وانطفأ البريق من عيني وكنت أشبه بالأسير.

وأنزل في تلك اللحظة ستار على الماضي وإلى الأبد دون أن أدرك وتبدل مسار وتاريخ حياتي.. وأصبحت في خلال ساعتين فقط «مشروع طالب عسكري». (Officer Cadet).

وبعد ساعتين أيضاً كنت أغمض عيني متظاهراً بالنوم.. حتى لا أتلقى مزيداً من العقاب العسكري «وهو أسلوب طبيعي في الكليات العسكرية للطلاب الجدد».. وحتى أسترق ما يقوله المحيطون حولي علّ ذلك يمدني بمعونة ما وحتى أهرب إلى مخزون ذكرياتي.. التي انهالت علي الذكريات من تواريخ وأزمنة كنت حسبتها في العدم وبدا لي الوطن رائعاً كجنة مفتقدة ومفتقداً كشيء

عصي حتى على الحلم .. وبدا لي كل شيء نائياً كالنجوم في مجراتها البعيدة.

ليلتها فقط أدركت كيف كان شعور أبينا آدم في أول ليلة له على الأرض مطروداً من جنته وسألت نفسي: لماذا من كل الخيارات التي كانت متاحة لي اخترت هذا الخيار الأصعب؟ وآمنت أن الحياة مصير لا أكثر، وأن قدري أن أكون هنا.. ولا أدري متى وكيف جرفتني سنة النوم.. لكنه كان نوماً مترعاً بالكوابيس وشتات الأحلام .

وفي فجر اليوم التالي، كنت أركض مع الجميع وأقف على كلمة: قف..استرح واستعد، ولكن باللغة الأوردية، وأجيب بصوتٍ عالٍ كل من سألني وبإنجليزية مهشمة: أنا الطالب العسكري عمر العامري سيدي (I am Officer Cadet Omar Alamri Sir).

وكنت أتهجى أولى خطوات حياتي الجديدة.. وأستجلي درباً غير واضح المسار.

وبعد ثلاثة وعشرين عاماً عدت إلى الكلية، ولكن ضيفاً هذه المرة بعد أن غدوت قائداً لسفينة حربية وزائراً رسمياً للبحرية الباكستانية.. وكان في استقبالي قائد الكلية ووجدت كل شيء كما كان، عدا القليل من التبدل، المكان والسماء وسحب الغربان والبحر الخالد منذ الأزل، لكني لم أجد كلمة مناسبة أملأ بها الثلاثة والعشرين عاماً التي تصرمت، ولم أجد أيضاً شبانه.

موعدٌ في المساء

هناك أمكنة نحملها معنا أينما ذهبنا.. نظل نسترجع تفاصيلها حتى الصغير منها، وهناك أمكنة تلفظها ذاكرتنا حتى قبل أن نمضي.

لقد ظلت السنة ونصف السنة التي قضيتها داخل الكلية حية داخل ذاكرتي بكل تفاصيلها.. وأستطيع أن أسترجع تفاصيلها حتى الصغير منها.. ليس وحدي أنا من يتذكر ذلك، زملائي الذين كانوا معي يحتفظون أيضاً بتفاصيل مشابهة لتلك الأمكنة وتلك الأيام.

وعندما أتذكر الآن تلك التفاصيل والتي كانت تبدو قاسية في حينها.. تبدو لي الآن جميلة بشكل لا يصدق.. إنها أيام الشباب الذي كان والذي مضى والذي لا يقدر حينه والذي أبداً لن يستعاد.

كنا نقوم قبل صلاة الفجر.. لنحلق لحانا وشواربنا.. ولأنه لم يكن لي شارب أو لحية أحلقها فإني كنت أمرر عليهما بالموسى وأنا تحت اللحاف لأغتنم دقائق أخرى من النوم اللذيذ.. قبل أن نخرج إلى فترة الرياضة الصباحية.. ثم نجري لنظفر بحصتنا من الماء قبل أن يتوقف.. ثم نلبس الملابس العسكرية على عجل

لنلحق بوجبة الإفطار قبل أن يدق جرس الدخول ولا ندخل إن تأخرنا .. ونخرج لطابور الصباح وتحية العلم ثم الفصل الدراسي وتفاصيل أخرى كثيرة لاتهم أحداً لكني أتذكرها وكان الغرض من هذا التدريب العسكري الشاق هو تحويلنا من طلاب قادمين من بيئات متباينة إلى عسكريين مطيعين في بوتقة واحدة لا نعرف غير نعم.. حاضر.. أمرك.. تمام..إلخ.. وكان ذلك يتكرر كل يوم.

وبعد انتهاء التفتيش المسائي على نظافة أسرتنا وغرفنا وترتيب دواليبنا ومقتنياتنا القليلة في نهاية اليوم، وإذا كان التفتيش مُرضياً ولم يحكم علينا بعقاب أوتوقيف أو إعادة النظافة وما أكثر ما يحدث ذلك كنت أتسلل لحضور الفلم السينمائي الذي تعرضه سينما الكلية في المساء والذي لا أفهم منه شيئاً، لأنه باللغة الأوردية في الغالب ولأني لا أتطلع إليه كثيراً في الأغلب.

كنت أقعد في الصف الأخير دائماً.. في المقاعد المخصصة للطلاب.. وبمحاذاة الصف المخصص لضباط الكلية وعائلاتهم.. وحيث تجلس في الغالب ابنة قائد الكلية لوحدها أو مع عائلتها أو صاحباتها يتهامسن ويضحكن ربما علينا نحن القادمين من بلاد بعيدة برؤسنا الحليقة وملامح وجوهنا المحروقة .

كانت مراهقة في الخامسة عشرة من عمرها تقريباً، وجهها مليء بالنمش، وفمها مفتوح دائماً وتضحك مع من حولها دائماً..

وكنت أسترق النظر إليها دائماً وطوال الفلم والتهم الفول السوداني ولا أظن أنها كانت تشعر بوجودي أو تشعر أني حتى على جلد هذا الأرض، لأني لم أكن سوى طالبا بأذنين كبيرتين وشعر نصف محلوق ولباس ينم عن فاقة وسوء اختيار.

لكن ذلك الوقت الذي كنت أجلسه على بعد متر منها، يبقى أجمل أوقات اليوم كله، الذي كنت أنتظره طوال النهار وأحبط كثيراً عندما أذهب ولا تكون هناك.. وأمضي. ولأني لم أكن أعرف اسمها.. ولا أستطيع أن أسألها عنه أو أسال عنه أحداً حتى لا أتعرض لسخرية مريرة فقد أسميتها..(ولادة) والكائنات لا تكتسب وجودها إلا عبر الأسماء.

وانتشر الاسم وبسرعة بين جميع الطلاب من ليبيين وكويتيين وفلسطينيين وقطريين وسواهم.. كان الجميع يظن أن اسمها (ولادة).. هم أيضاً مثلي يحيون في فقر وقفر العزاءات.

وكانت إذا ما عبرت ميدان الكلية مع والديها يهتف زملائي أن ولادة تعبر الميدان الآن.. كان قلبي يتوقف.. وكنت أصنع غيمة زائفة من الأحلام.

وعندما كنا نُكلف بإضاءة أنوار الكلية في الغروب أثناء المناوبات، كنت أجري إلى بيت قائد الكلية لأضيء الأنوار المحيطة بذلك المكان ولعلي أظفر منها بلمحة أو خيال من بعيد.

لكن قائد الكلية ما لبث أن انتقل إلى مكان آخر..وجاء قائد آخر، قائد لديه ابنة لكنها أصغر كثيراً، ولديه كلب أيضاً، وانتقلت ولادة مع أبيها إلى حيث لا أدري.. لكن قصتها وذكراها بقيت تضيء وحشة المكان.

وبعد ثلاثة أعوام من انطفاء ذلك الوهم.. أقامت القوات البحرية الباكستانية سوقاً خيرية تشرف عليها عائلات الضباط.. ورأيتها هي بفمها المفتوح دائماً وبالنمش الذي لم يتغير وبربيع ضحكتها الدائمة.. ولا أدري ماذا كانت تسوّق وعلى ماذا تشرف..؟ ولم تكن وحدها كعادتها، كأنها دائما تحت وصاية، كانت مع أختها الكبرى وأخريات.

وحييتها هذه المرة، سألتها عن اسمها وكنت قد تخرجت وغدوت ضابطا بحريا.. وأجابت بكل بساطة كأنها تنتظر هذا السؤال منذ ثلاث سنوات أن اسمها شبانة.. شبانة هكذا قالت وأنت؟ قلت عمر من السعودية، وكانت تلك الجملتين هي كل الحوار الذي انعقد وكان أيضاً ـ ويا للخسارات ـ آخر عهدي بها.

وعندما أسترجع الآن ذلك الوهم ومن هذا البون.. لا أعرف إن كان جنوناً أم غباءً أم هاجساً إنسانياً أملته وحشة المكان؟.. لكني أعرف أنه شكّل لي وهماً لذيذاً وسط ذلك القفر.. وحلماً كأحلام ليالي الصيف، ولكن هل كان ذلك الحلم أول أحلامي.. بالطبع لا ولكن..؟

طالبٌ رغم أنفي

في قرية من أقاصي الجنوب، تقتفي أثر الغيم وتتوشح في المساءات ضياء القمر وتدعى (القمري)، كانت خطواتي الأولى. عمتي (فاطمة) تقول إني ولدت في القاسمية القاسمية التي كانت ذات يوم بقعة من غيل ورمل ومرعى قبل أن يخونها الماء والجفاف ورحيل أهلها وتموت.

لكننا مالبثنا أن تحولنا إلى القمري، والروايات تُختلق وتختلف وأنا نسيت أن أسال.. لكن أحلامي التي تسري بي كل ليل إلى القاسمية، حيث وجه الراحل جدي وما أتذكر من حنان أمي، تؤكد لي أن القاسمية كانت مسقط الرأس ومدفن السرة وأول أرض مس جلدي ترابها.

كانت القمري، في الثمانينات من القرن الماضي ككل القرى، غارقة في البؤس والفاقة واللامكان.. لكنها كانت عامرة بالطيبة والبساطة والغنى الذي لا يستنفذ. كانت المزارع تحدق بها من كل الجهات والوديان تجري بالماء معظم أيام السنة والسماء قل ما

تخلف وعدها.. والكل يعمل رجالاً ونساءً، والحياة تسير على قدمين ولا مساحة للقبح أو سوء النوايا.

كان الناس في ذلك الزمن المنسي يتوارثون الفاقة والجهل والرضى الأعمى كانوا يتشاركون القدر والمصير .. وكان كل شيء ثابتاً لا يتغير أو كأنه عصي على التغير.

وكان الهاجس للكل هو الميلاد والموت ولا شيء أكثر.. ولم لا؟ فالقمري تحاط بالمقابر من جهات أربع بل وأكثر وقد أزيل بعضها وسورت أخرى بأسوارعالية مع أن الموتى لايرحلون.

وما الذي أتذكر من تلك الطفولة غير الحمى وأمراض الحصبة والملاريا والسعال الديكي؟.

يقولون إني مت مرتين أو هكذا ظنوا.. مرة أطلقوا من فوقي رأسي رصاصة وأفقت.. وأخرى كُويت بعود من شجر (المرخ) في جبهتي فأفقت أيضاً وغدت علامة فارقة في هويتي.. ويبدو أن كلتا الميتتين لم تكونا سوى إغماءة الحمى وعمر الشقي بقي، كما يقال.

كنت على ما أتذكر أعاني من الربو.. وكنت أفيق وقد تلاشت أنفاسي وأتذكر ـ ضمن ما أتذكر ـ دموع أمي وهي تدور بي في باحة الدار عاجزة إلا من البكاء والدموع وما الذي كانت تستطيع فعله في ذلك الزمن الذي لم يكن قد عُرف ترف المستوصفات؟

لكني كبرت كما يكبر كل شيء في تلك القرى الضائعة ومن

يصدق أني كنت ذاك الطفل السقيم الذي جاء دون بهجة، والطفل الثالث يأتي دائماً بفرحة قليلة وحضور منتظر.. الطفل الثالث تحصيل حاصل وتأكيد للمؤكد ولا أكثر.

أتذكر أيضاً بعد أن كبرت قليلاَ أني كنت كثير الأسئلة.. لا أعرف كم كان عمري عندما سألت أمي

- من هو الرسول؟

- شخص يتكلم مع ربي.

- ومن هو ربي؟.

- هذا الكبير.. وأشارت بيدها للسماء الزرقاء.

ولم يكن في القمري مدرسة.. كانت المدارس شحيحة.. وأقرب مدرسة في مدينة ضمد التي كانت تبعد عنّا أربعة كيلومترات تقريباً وكانت الدراسة ترفاً.. فمن هو هذا الأب الذي لا يحتاج ابنه في الرعي والزراعة ليرسله ليقضي جل يومه يتلقى.. درس.. زرع.. حصد..؟ وكانت هذه أولى الكلمات التي كنّا نتعلمها في كتاب الهجاء المدرسي.

وبدأ أبي يحفظنا أنا وأخي حسين القرآن.. وربما لم أتجاوز الرابعة.

ثم التحق أخي الأكبر حسين بالمدرسة في ضمد بدافع الرغبة.. أما أنا فدخلتها بدافع الغيرة لا أكثر.. فلقد بهرتني صور كتابي

الهجاء والعلوم ورغم فقر صورهما.. وحتى يكون لي مثلهما فقد رافقت أخي في اليوم التالي رديفاً على حمارة بيضاء روضتها الأيام ومضى بها الزمن وغدت تمشي بتثاقل مطمئن لصغيرين مثلينا.

أعادوني للبيت بعد يومين بحجة أني أصغر من أن أكون طالباً وفرحت،

لكن أبي أعادني في اليوم الثاني قائلاً لمدير المدرسة،

ـ (خله يناوس) أخوه وإلا بطلت عليهم كلهم.

وهكذا بدأت رحلة المعرفة من باب الغيرة رحلة بدأت ولم تنتهِ ولن تنتهي.. لكنني كل يوم أزداد جهلاً بمفردات الحياة.

لن أغرق هنا كثيراً في تفاصيل طفولتي.. وسأظل أعود إليها كلما أرهقتني تعقيدات الحياة وأحسست أني بحاجة للهروب إلى سنوات لم تعرف الزيف سنوات أعود إليها كلما اجتاحتني موجة الذكريات وكل ما عز العزاء في سنوات التعب.

استمريت في الدراسة صباحاً والعمل في الرعي والمزرعة مساء.. وبقيت أيضاً، رغم غارات المرض حتى حصلت على الشهادة الابتدائية.. وكنت وأخي حسين من أوائل الذين نالوها في القرية.

وأذيعت أسماؤنا في الإذاعة لكننا لم نسمعها.. سمعها آخرون.

وكانت الابتدائية شهادة تعقد من أجلها لجان وتذاع أسماء

الناجحين في الإذاعة وكانت لجنة اختبار الابتدائية في مدينة صبيا.. وهناك بقينا عشرة أيام مع آبائنا نؤدي اختبار الشهادة الابتدائية.

وفي صبيا رأيت الكهرباء أول مره، وشربت الميرندا، وصعدت مبنى مكوناً من ثلاث طوابق..(مبنى المدرسة).

كان أخي الأكبر حسين قد بدأ يتدرّم(*).. كان يستعجل ختانه والرجل لا يكبر في القرى إلا بعد أن يُختن.

ولم نكن نختتن في المهد.. كان الختان احتفالاً صاخباً معمداً بالدم لدخول بوابة الرجولة. لكن أبي خاتله ذات صبيحة وأخذه إلى مستشفى جازان وكنت معه، وتم ختاننا نائمين على ظهرانينا ودون طقوس وفرح وأزيز رصاص.. وكانت فضيحة.. لكن الآخرين حذو حذونا بعد تردد وجزي الله والدي فقد سن سنة حسنة وتحمل بشجاعة ضريبة التغيير.

إذن وبضربة قدر لا تتكرر حققت إنجازين كبيرين.. أخذت الشهادة الابتدائية.. وختنت.. وأيضاً تغير اسمي من عمرو.. إلى عمر بعد أن اكتشفت المدرسة أن موظف الأحوال أسقط الواو من اسم عمرو.. لكن عمر بقي اسما رسمياً فقط للأوراق وللآخر وكنت ومازلت عمرو.

(*) يتدرّم: بمعنى يستعد للختان.

وتقدمنا أنا وأخي حسين للمعهد العلمي بجازان وكان المعهد يدفع مكافأة نقدية ويختصر الطريق للتخرج وقُبل أخي ولم أقبل ولم نكن نفترق.. وأعادنا أبي مرة أخرى إلى مدينة ضمد وعلى نفس الطريق لنلتحق بالمدرسة المتوسطة..ترى هل أجهض علي أبي مشروع شيخ أو عالم فقه؟.

وفي الثالثة عشرة من عمري رحلت أمي.. ماتت في ليلة شتائية، مازلت أتذكر تفاصيلها لقد انتظرها الموت كجبان بعد صلاة العشاء واختطفها دون أن تلوح لنا تلويحة الوداع وماتت.

وكم كنت غبياً عندما تصنعت الشجاعة حتى لا أبكي.. كنت أظن أن البكاء ضعف وخذلان حتى على الأم ولهذا توجب على أن أدفع فواتير حزن مؤبد.. حزن لن يموت.

وبقيت العمر، كل العمر، مجرداً من حنان الأم.. ودعاء الأم.. وبقيت أبحث عن عزاء في وجوه تتشابه كثيراً لكنها ليست كوجه أمي.

عالم يتبدل

وتغير العالم بالنسبة لي.. انقسم إلى عالمين، عالم قبل وفاة أمي وعالم بعد وفاتها والذين فقدوا أمهاتهم صغاراً يعرفون ذلك التشظي.

وتزوج أبي بعد عامين، وشعرنا نحن الإخوة والأخوات أن أبي خان ذكرى عشرته مع أمنا، وأنه تغير علينا وأن أخرى أقل قيمة استولت عليه، أو هكذا فسرنا الأشياء وقتها.. وبدأ يذوي فردوس جميل كنت فيه، فردوس العائلة الكبيرة.. وتسارعت تغيرات الجسد وكيمياء الروح أيضاً.. ولم يعد التراب الذي أقف عليه هو التراب الذي أعرف، لم يعد ساكناً كما كان.. وبدأت سنوات التمرد والعذابات ومحاولة تشكيل العالم وفق ما أتمنى وأحلم.. لكن المراكب ثكلى والروح عجلى والطريق طويل طويل.

وبدأت تهب على حياتي رياح التغير وابتدأ من القرى كل القرى، موسم هجرة للشمال.. كثيرون هاجروا للشمال بحثاً عن عيش أقل شظفاً.. بحثاً عن أفقٍ جديد في الحياة، وكان عمي حسن منهم بعد أن ترك البئر والسانية والأرض الشحيحة ومضى للرياض.

وغادر أخي الأكبر إلى الرياض للدراسة والعمل والسكني مع عمي.. والتحقت به أيضاً طالباً في ثانوية أبناء العسكريين بعد كذبة صغيرة لأنها الأقرب إلي حيث كان يقيم عمي وسكنّا معه في بيت من الطين أحياناً، وفي بيوت من الصفيح والورق أحياناً أخرى، وكان الفقر وسط الغنى مؤلماً، ولم نكن مجبرين على الرحيل لكن أخي كان يسجل إحتجاجه الصامت على تبدل أبي نحونا.. وكنت أقلده لا أكثر.. وكان الثمن قاسياً قساوة الفقر المريرة التي رزحنا فيها.

كنت أصل للفصل الدراسي ماشياً بثوب وحذاء وحيد، وكان يصل زملائي الآخرون من أبناء الضباط، بل وبعض أبناء الأمراء في سيارات فارهة ووفرة مطلقة.. وكان هناك من هم مثلي أيضا من القادمين إلى الرياض من هجر وقرى بعيدة غير أنهم حتما كانوا أقل فاقة.

لكني كنت متفوقاً في دراستي ومشاركاً في مسابقات الشعر والكتابة والخطابة ومحبوباً من مدير المدرسة، ولم يتملكني أبداً شعور بالنقص رغم ضآلة جسمي وغرابة لهجتي.. ووجودي وحيداً وسط وجوه جديدة وكنت أفاخر وأنافح أني من جيزان، جيزان التي كان البعض من أبنائها لا يفضل الانتساب إليها في ذلك الزمن لسبب مازلت أجهله.

ونجحت لكن عمي بدّل مسكنه وتحولنا معه إلى جهة أخرى

من مدينة الرياض وانتقلت لثانوية اليمامة قريباً من قصر الحكم القديم وسط الرياض القديمة، الرياض التي كانت تتبدل هي أيضاً.

وكانت ثانوية اليمامة باذخة ونموذجية في كل شيء، وقرأت في مكتبتها كتباً كثيرة وأتذكر أمين مكتبتها النبيل الأستاذ محمد القرعاوي ابن العالم السلفي الشيخ عبدالله القرعاوي، لكني رسبت في مادة الجبر، وكانت الأرقام والمعادلات ومازالت معضلتي الكبرى.

وعدت للقمري بعد أن هزمتني مرارة الفقد والحنين، وأكملت ما تبقى في ثانوية جازان الوحيدة، ثانوية معاذ ابن جبل.

هل لي أن أقول لكم أن ثانوية الأبناء التي درست بها الأول الثانوي بكذبة صغيرة، أزيلت بعد سنوات وأقيم مكانها عمائر أنيقة لضباط القوات المسلحة امتلكت أحد شققها أثناء عملي في الرياض..؟

وهل لي أن اقول إن تلك الشوارع التي كنت أقطعها ماشياً شبه حاف وأنا أرتجف من البرد عدت أذرعها راكباً سيارة فخمة..؟

وهل لي أن أقول إن النخيل الذي كان يجمّل شارع المطار القديم وأنواره التي كنت أذاكر دروسي تحت أضوائها هي هي لم تتبدل، والسماء التي فوقه هي أيضاً لم تتبدل.. ما تبدل هو أنا والزمن وغياب أخي حسين عن ذلك الفضاء بعد أن عاد للقمري واستقر.

وهل لي أن أقول أن الحي الذي كان يشرق بالمبرقعات من الصبايا الجميلات ورجاله الوسيمين القادمين من الشمال والجنوب تبدل أيضاً.. وغدا كأحد أحياء كراتشي أودكا أوكولمبو السيرلانكية.

وهل لي أن أقول أيضاً إن الحياة لم تكن أبداً بخيلة معي حتى وإن قست قسوة سماء الرياض.

لكن هذا التبدل انتظر ثلاثين عاماً، وهذا الكرم انتظر ثلاثين عاماً، وهذا التصالح انتظر ثلاثين عاماً، وعندما جاء لم أعد أنا، أنا الحالم القديم ولا الرياض هي الرياض القديمة، ولم تعد الدنيا هي الدنيا التي أعرف، وهل الثلاثون قليلة في حساب العمر؟

وفي جازان هبت علي رياح الشباب ورغبات القلب وعذابات الحب المهجور.. جازان التي تبدلت هي أيضاً وفقدت أجمل ما فيها.. قلاعها القديمة وشاطئها الجميل وجبلها الأحمر ومنجم ملحها الشهير.

كان التغير يطال كل شيء.. ويدمر في طريقه كل شيء.. وكانت الطفرة تجتاح كل شيء.

ومن جازان حملت شهادة الثانوية العامة وانطلقت مرة أخرى إلى الرياض متسلحاً بأحلام أخرى وآمال أخرى.. وكان المقصد جامعة الرياض.. غير أن الجامعة لم تكن أكثر من معبرٍ لفضاءٍ أكبر.. فضاء الحياة.

عمى الألوان

ـ أكتبي مذكراتك يا إزابيل.

ـ أسرتي لا تحب أن ترى نفسها معروضة أمام الملأ.

ـ لا تهتمي بشيء إذا كان لابد من الاختيار بين كتابة قصة أو إغضاب الأقارب، فإن أي كاتب محترف سيختار الخيار الأول.

هذا ما تقوله إزابيل اللندي في كتاب مذكراتها (حصيلة الأيام) ولكن تلك إزابيل وحياتها التي كانت غنية بزوجين وعشاق ومحبين لا حصر لهم وثلاثة منافي وسفر وغنى وأوطان تُفتح لها فما الذي في حياتي؟ وما الذي يعرض هنا أو يثير..؟

غير أنه عندما لا تكون في حياتنا مكتسبات كثيرة نفضل الحديث عن ذواتنا.. عن أنفسنا نخترع حكايات ومنجزات لم توجد، ونصنع من كهوف الريح مساكن للروح ونتحدث.

عدت للرياض من أجل الدراسة الجامعية هذه المرة.. وصلتها قاصداً كلية الهندسة، فقيل لي إن الجامعة قد امتلأت وإني قد تأخرت.. ولم يعد من الكليات العلمية غير الزراعة والعلوم،

واخترت العلوم قسم علوم الأرض (الجيولوجيا).. وكان قد بقي على بدء الدراسة شهر ونيف.. وأقمت مع القادمين من القمري للعمل في بيت من الكرتون والصفيح في (عزبة القمارية) وسأذكر بعضهم للذكرى لا للتأريخ، وكان منهم جبريل حزام وسعيد عامري وكانا يعملان في البلدية..(جبريل قد مات) أولاد عمي عبدالله سويد يعمل في المطار ومحمد سويد في شركة الزاهد، حسن أبو شهادة وأخوه أحمد في مطابع اليمامة، علي رقيعي وعبدالله المنقري في شركة العيسى للسيارات، أخوه محمد المنقري يعمل في مستشفى طلال الذي تحول للمستشفى الجامعي في ما بعد (محمد المنقري مات أيضاً بالفشل الكلوي).. وكان أحمد شافعي يعمل في بناية تسمى عمارة البرج ولا أعرف ماذا كان يعمل؟ لكن عمه اللبناني كان يرسله أحياناً للبيت يوصل المقاضي للمدام وكان يبدو صغيراً، رغم أنه قد تجاوز الثامنة عشرة وكان يأتي مبهوراً ببياض وجمال (المدام) التي كانت تعطف عليه كطفل.

- واوووووووووووووووه ياعمرو أيدها رطيييييييبه وهي بيضاء.. بيضاء،

(أحمد شافعي مات أيضاً في حادث سيارة وهو يهرّب قاتاً ومجهولين عبر الحدود).. وعيسى البعيطي يعمل حارساً في المعهد المهني وآخرون نسيتهم.. آخرون كانوا يقيمون قبل أن يمضوا إلي مسارب أخرى.

هكذا كانت الرياض في أواخر التسعينيات من القرن الماضي.. مقصداً لغرباء لا مؤهلات لهم عدا شبابهم المتوثب وأحلامهم الخضر والبؤس الذي شردهم.. والذي من أجله تركوا أغنامهم وأرضهم في مواسم هجرة كبيرة نحو المدن.. قليل منهم بعائلاتهم.. وعند هؤلاء كنا نودع مدخراتنا القليلة إن وجدت.. لأنه لا أحد يثق بالبنوك أو ربما كنا نتهيبها.. ونودع لديهم أيضاً أوراقنا الثبوتية (الهوية الوطنية) الوثيقة الرسمية الوحيدة التي كنا نمتلك.

ولم نكن نخاف اللصوص.. لا لصوص أبداً..لكننا كنا نخاف الحرائق.

كنا نسكن حوشاً كبيراً من الكرتون المقوى في حي الملز قريباً من شركة الجفالي.. حيث نحصل على الماء من خزانات العمائر التي تُبنى بعد أن نغافل الحرس ونتدبر ما تبقى من ضروريات العيش.

ولم نكن نشعر أننا تعساء أبدا ولم يكن يتملكنا شعوراً بالفاقة أو الدونية والنقمة.. للشباب ربيعه وبهجته وغناه والمستقبل صرة مربوطة لم تفتح.. والوعي بالعذابات قليل.

وفي اليوم التالي وبعد أن أنهيت إجرآت التسجيل في الجامعة أخذني عبدالله المنقري إلى شركة العيسى للسيارات لأعمل بها حتى تبدأ الدراسة في الجامعة، لكنه أوصاني قبل أن نذهب:

- لا تقلهم عندك جامعة بعد شهر.. ترى ما حيشغلوك..سمعت.

- أبشر.

وبدأت في شركة العيسى للسيارات بكذبة صغيرة.. ولا أعرف لِمَ تبدأ كل مراحل حياتي بكذبات حتى إن كانت صغيرة؟

وابتدأت أعمل في مستودع قطع الغيار.. مع موظفين جلهم (من الشام) لا أعرف إن كانوا فلسطينيين أو سوريين أو حتى أردنيين. ولم يكن خزان القارة الهندية قد فُتح.. ولم يكن قد هدم ي سد ذو القرنين وأنثال علينا يأجوج ومأجوج من القارة الهندية فقط (كنا) نحن عيال البلد وأشقاؤنا من أبناء اليمن الشقيق،

ولم يكن العمل كبيراً.. وكنت أقضي جل وقتي في القراءة.

سألني أحد الخبثاء من موظفي الشركة وكنت (أتلقف) وأقرأ لهم أرقام وأسماء القطع باللغة الإنجليزية

- وين تعلمت الإنجليزية؟

- في المدرسة المتوسطة وجئت أبحث عن عمل.

وكان حجمي ووزني يوحيان بأني لم أتجاوز الكفاءة المتوسطة.

وبعد شهر وبعد أن نقدوني ثمانمائة وعشرين ريالاً ووضعتها في جيبي الداخلي أخبرتهم الحقيقة وكلي خجل وغادرت شركة العيسى الواقعة على شارع الملز القديم دون ذكريات.

بدأت الدراسة الجامعية وكان نظام الساعات قد بدأ تطبيقه،

والسكن الجامعي على طريق المعذر، وكان نائياً وبعيداً عن الجامعة في موقعها القديم قريباً من حديقة الحيوان بالملز التي كنا ندخلها رجالاً ونساءً، قبل أن يكتشف فتيان الصحوة أن دخول الرجال مع عائلاتهم إلى حديقة الحيوان يفسد الأخلاق، فقسموا الأيام بين الرجال والنساء ولا أدري إن بقيت هذه الحديقة أم أنها تلاشت بعد أن لم يعد بها ما يبهج.

وكان معي في السكن شاب لطيف جداً من المنطقة الشرقية.. أتذكر أن اسمه علي العلي.. وشاب آخر من نجران اسمه الأول سعيد ولا أتذكر باقي إسمه، وكان يدرس علم الاجتماع ويعمل في شركة أجنبية، وكان يحضر لنا منها مجلات (ايروتيكية).. وكانت صادمة وملهبة للقروي ابن العشرين القادم من فضاء القرى المحافظ.

كان نظام الدراسة مرهقاً ونظام الساعات غير مألوف.. أحياناً تكون محاضرة في الساعة التاسعة والأخرى السادسة مساء.. وعدت لدراسات التفاضل والتكامل الذي لا أحبه.. ولم تكن مدرجات الجامعة كما كنت أحلم.. ومعظم المحاضرين شباباً حديثو العودة من أمريكا وأوروبا.. كانوا يتحدثون عنها بفتنة وحنين كأنهم يستفزون خيالاتنا وكنت أغمض عيني وأحلم بتلك البلاد البعيدة والمدن الأسطورية ولكن كيف الوصول؟.

وأرهقتني المواصلات ونظام المحاضرات الموزع بين الصباح والمساء وتركت السكن بعد ثلاثة أشهر رغم بهجة مجلات سعيد السرية وروعة الرفاق وجمال المسكن.

وعدت أسكن مع أهل القمري في (عزبة الأنس) كما كانت تسمى والتي لا يلتئم سكانها إلا في الليل وقد احتضن كلٌ منهم جهاز تسجيله الخاص به وأطلق الفضاء لأغنيته المفضلة والكل يسمع للكل والكل يتحدث للكل، وكان المساء غنياً بشجن الذكريات الطرية وسحب الدخان وحكايات الحنين، كانت المساءات ملائمة لكل شيء عدا مذاكرة طالب جامعي هو أنا.

وقررت أن أترك مقاعد الجامعة دون مشورة من أحد، وأن أبحث عن وظيفة مثلهم فدرب الجامعة طويل ويحتاج إلى معونة أفتقدها وكلهم مابين خاطب أو متزوج إلا أنا الوحيد الذي يقتات على أوهام حب مؤجل.

وتركت الجامعة وغادرت إلى مكة المكرمة بحثاً عن وظيفة وحيث يعمل ويقيم أخوالي.. الذين لم يرحبوا كثيراً بفكرة الوظيفة ومغادرتي الجامعة، وبقيت هناك أسابيع أفتش عن عمل دون جدوى، وكان ليل مكة وفضاءاتها أكثر حميمية ورقة من مساءات الرياض الموحشة ولكن ليس من أجل ذلك جئت.

وبلغني أن أبي مستاء جداً لتركي الجامعة.. وكذلك إخوتي ولم

أكن أتوقع غير ذلك.. ولم أجد الوظيفة التي أحلم بها ولم أعد أعرف ما الذي يمكنني أن أفعله.

وقررت العودة للرياض وعدت مباشرة من المطار إلى كلية الملك فيصل الجوية.. كنت أريد أن أكون طياراً كما حلمت ذات يوم كنت أريد أن أصنع تميزاً يجلو عني الخيبات غير أني لم أتجاوز اختبارات الكشف الطبي المبدئي عدا اختبارات السمع وعمى الألوان.. ولم أتجاوز اختبارات النظر ولا الطول ولا الوزن.. وكان كل ذلك كشفا مبدئياً، وبالطبع رُفضت،

رُفضت كطيار وقُبلت كفني ولم أقبل وغادرت.

ووقع بصري بالصدفة وحدها على عدد من إحدى المجلات وعلى غلافها الأخير إعلان يقول: التحق بالقوات البحرية.. تحقق لك ابتعاثاً خارجياً ومكافأة مجزية وتعود للوطن ضابطاً بحرياً وقلت هي هي.

وتقدمت وقُبلت في الحال ولم يكن الوزن والطول والنظر مهماً في القوات البحرية كما في الطيران، وكان ابن عمتي سعيد قد ترك البلدية والتحق بالشرطة العسكرية في فصيل حراسة المستشفى العسكري، وتأكد لنا خلوه من الأمراض المعدية وهكذا فقد تبرع جزاه الله خيراً وأمدني بمستلزمات تحليل البول والبراز (أكرمكم الله) من باب الاحتياط واجتزت الكشف الطبي ووقعت أوراق

الكفالة والتعهد من ولي أمر مفترض ونقدت أحد عمد الأحياء مئة ريال ليختم لي الأوراق بدلاً عن شيخ القبيلة القابع في إحدى قرى جازان وهكذا أيضاً بدأت حياتي العملية بكذبات أخرى لكنها كذبات كبيرة وعديدة هذه المرة وهل من خيار؟.

ومن الرياض إلى الدمام حيث مقر القوات البحرية الناشئة قريباً من ميناء الملك عبد العزيز أو ما كان يعرف بـ «القشلة».. و«القشلة» مفردة تركية أظن معناها الثكنة العسكرية.

ولم أكن أعرف أحداً في المنطقة الشرقية عدا شخصا كان ينزع معنا الماء من البئر في القرية وكان قد تزوج ابنة جيراننا والجيران أهل في ذلك الزمن، ورغم أن المعرفة كانت عابرة إلا أني قصدته في ثكنته العسكرية في مدينة القطيف وسكنت عنده داخل مقر الشرطة الواقعة قريباً من ساحل البحر حتى أنهيت بقية الآجر آت وأستخرجت جواز سفر وتذكرة ذات اتجاه واحد للباكستان وأكملت باقي الأوراق وكان ذلك الكريم هو جابر الشبلي الذي ظل له في عنقي ديناً لن يسدد.

ومن القطيف إلى مطار الظهران ثم إلى مطار أبو ظبي وأخيراً مطار كراتشي والرفاق الذين كانوا قد سبقوني بخمسة أشهر.. خمسة أشهر كانوا في ميدان الكلية ومكابداتها وكنت أنا أستقرئ كتاب مستقبل بقيت سطوره مقرؤوة للكل الناس إلا أنا .

وهل كانوا يفعلون بك ذلك؟

باكستان.. باكستان.. باكستان.. بلاد الأساطير والسحر والنساء الجميلات وأشاوس الرجال، لم أتحدث عنها إلى الآن ولن أتحدث عنها بما يكفي، ومهما تحدثت فلن أوفيها حقها، هي البلد التي جئتها بزغب على الشفتين وجسد تهب عليه الريح فيطفو وغادرتها بعد سنوات أربع وقد نضوت عن جسدي ريش الطفولة ولم أعد أنا الصبي الذي دخلها بعينين زائغتين وكلمات متعثرة وقناعات طفولية لم تصمد وتلاشت كسحب السماوات السارحة.

ربما سمعت باسم باكستان أول مرة على مقاعد الصف الخامس الابتدائي.. باكستان الغربية وعاصمتها كراتشي وباكستان الشرقية وعاصمتها دكا وفي السنة الثالثة المتوسطة أصبحت عاصمة الباكستان روالبندي.. وفي الثانوية لم تعد سوى باكستان واحدة عاصمتها إسلام آباد.. أما جناحها الشرقي فقد انفصل وأصبح دولة مستقلة اسمها بنغلاديش ورئيسها ضياء الرحمن، وهكذا أعيد تشكيل القارة الهندية وأمة ودولة الهند الكبرى التي عاشت آلاف

السنين كشعب موحد.. وقسمت إلى دول كالهند وباكستان وبنغلاديش ثم حدود وجيوش ضاغطة على الزناد وصورايخ نووية موجهة للمدن الكبرى.. وأديان وفرق ومذاهب وآلهة وأرباب مختلفة وأنهار من الدماء ما زالت تسيل وستظل تسيل.

لقد وصف سليمان رشدي ذلك بقوله: (لقد انفصلنا عما هو أكثر من الأرض، لقد انفصلنا عن التاريخ، عن الذاكرة، عن الزمان)

وعندما وصلت إليها كان الجنرال محمد ضياء الحق قد انقلب على رئيس وزارء باكستان اللامع ذو الفقار علي بوتو والذي إختارة ومنحه ترقية إستثنائية من بين عشرات الجنرالات كرئيس للأركان لأن بوتو كان يخشى إنقلاب الجيش بعد أن سن أيوب خان ثقافة الأنقلابات لكن ضياء ما إن وصل للجيش حتى أطاح به ووضعه في السجن ورفض كل نداءات العالم لإطلاق سراحه قبل أن يشنقه ذات فجر في أحد السجون المنسية بمباركة قضاة مزورين وتهمة ملفقة وحقد أعمى.. وهكذا يكتب التأريخ وعربته لا تسير إلا على الرؤوس والأجساد.

ولأن ضياء الحق القادم من المؤسسة العسكرية يفتقر للغطاء الشعبي في ظل غليان باكستان على فقد بوتو الشاب اللامع والسياسي المتمرس الذي فاوض الهند في أقسى ظروف الهزيمة،

فإن ضياء الحق لم يجد أفضل من عباءة الدين ليلبسها.. مثله مثل كل الطغاة في التأريخ، وأعلن تطبيق الشريعة في بلد مسلم بالفطرة، ومن هناك بدأت محنة باكستان التي نرى نتائجها حتى اللحظة متلفزة لكل العالم.

وكنا نقرأ في صحف الهند أخبار تطوير المناهج والإنفاق على الأبحاث والتعليم وإطلاق صناعة المعلومات والبرمجيات والانتخابات البرلمانية وتبادل السلطات وصعود وهبوط الأحزاب عبر صناديق الانتخابات وكنا نقرأ في صحف باكستان قطع الأيادي وجلد المساكين بتهمة الزنا وأفتتاح المعاهد الدينية والتعليم الديني الشعبي وانتشار الرشوة والفساد. كل شيء كان قابلاً للمزايدة في باكستان، وهكذا انتكس بلد كان ينافس كوريا وتايوان في المداخيل والصناعات والتطور إلى بلد يُصدر أبناؤه عمالة رخيصة للجهات الأربع، ومشروع مهاجرين غير شرعيين ومصدري إرهاب لعواصم العالم.

واندلعت حرب أفغانستان وغزو أفغانستان كما كان يسمى، وكانت رسالة من السماء لضياء الحق تلقفها دون تردد كحليف لأمريكا ولكن تحت مسمى الحرب ضد الشيوعية وقوى الإلحاد وجعل من باكستان قاعدة للمجاهدين ضد الغزو الروسي والطمع الروسي والدب الروسي وكل أدبيات الحرب الباردة.

وكنت شاهداً على فترة محزنة في عمر باكستان القصير وكنت أرى إرث الحضارة الإنسانية يمحى في هذا البلد الجميل، كانت النوادي الاجتماعية والترفيهية تقفل والمجتمع المدني يتلاشى ودخل (الشروال قميص والبرقع الجامعة)وبدأ فصل النساء عن الرجال وخصصت مساجد للسنة وأخرى للشيعة ثم خصصت مساجد لجماعة التبليغ وأخرى لأهل الحديث، ولم يعد غريباً أن تسمع الأذان أربع مرات للصلاة الواحدة، آذان لأهل السنة وآخر لأهل الحديث ونداء لمساجد التبليغ ونداء لطائفة الشيعة، وبدأ الفقر وسيل المهاجرين والمهجّرين الأفغان يغمر حزام المدن وانتشر الفساد الأخلاقي والمالي وتهاوى سعر الروبية ولم يعد للناس من ملاذ سوى الجماعات الدينية.

كل هذا والرئيس ضياء الحق سعيداً بهذا التشكل، ويؤدي العمرة أربع مرات في السنة، ويجاهد الروس في أفغانستان ويفتتح المعاهد الدينية التي يلتحق بها الطلاب من كل مكان في العالم.

غير أن الرئيس المؤمن قتل في طائرته وبأسباب غامضة بعد أن أدى دوره في أفغانستان..وبعد أن تزايد أعداءه قتل هو ثلة من جنرالاته والسفير الأمريكي في إسلام أباد.

وبعدها ترشحت ابنة بوتو الجميلة بنازير لمقعد لرئاسة وزراء باكستان واستعادت الحكم من الجيش وأتذكر إحدى خطبها وهي

تقول بما معناه: (إن لأبي بوتو قبراً ومزاراً أعرفه.. أما الذي قتل أبي فلا يوجد له حتى قبر) وأحيانا تأتي العدالة سريعاً ومن يدري؟

لكنها هي أيضاً قتلت وبعد سنوات وبحقد أسود.. وبئست أمة ترى في قتل النساء شهادة وتقرباً لله.

وحكم باكستان من حكم الجيش حيناً وصناديق الأنتخابات أحياناً، لكن باكستان لم تعد ولن تعود البلد الطامحة للمستقبل، كما كانت صبيحة الاستقلال كجارتها الهند، وأصبحت مهددة بالتفكك إلى مكوناتها العرقية والقبلية والمذهبية، السند والبنجاب والباشتون والهزارا وقبائل الشمال الغربي وكشمير والسنة والشيعة والأسماعلية وهكذا تفتك المذاهب والطوائف بالبلدان.

هذه هي باكستان التي هبطتها ذات عشية لأجد نفسي بين طلاب باكستانيين وسعوديين وليبيين وفلسطينيين ومن كل دول الخليج كما قلت.

كان الإخوة الليبيون يزينون ثكناتهم بصور العقيد معمر ويوزعون الكتاب الأخضر ويبشرون بالنظرية العالمية الثالثة عن خوف لاعن قناعة..وكان الأخوة الفلسطينيون قادمين من المخيمات في جنوب لبنان والأردن وسوريا ولم يكونوا طلاباً غراً مثلنا، كانوا فدائيين، بعضهم قام بعمليات داخل الأردن وإسرائيل، بعضهم يحمل رتباً عسكرية وكلهم كانوا قد تلقوا تأهيلاً ثقافياً ويزينون

ثكناتهم بصور لينين وماركس وماو وتشي غيفارا وعرفات وأبي جهاد وحتى صور الإرهابي كارلوس، ويحمل بعظهم فكراً يسارياً وكان الزمن على كل حال هو زمن الشعارات.

ولم يكن الود بيننا نحن السعوديين وبينهم متصلاً أبداً، أعني إخواننا الثوريين، كانوا لا يرون فينا نحن السعوديين غير أتباع لأمريكا وأتباع للإمبريالية، وكان يصدمنا ذلك نحن الذين خرجنا من قرانا ومدننا الصغيرة ولم نكن نعرف شيئاً عن العالم ولا عن اليمين ولا اليسار ولا شيئاً من هذه الثقافة.. ثقافة الشعارات والأحزاب والمسميات.

وكانت ثقافتنا في حدود روايات المنفلوطي وجواهر الأدب وأدبيات وإسلاميات سيد ومحمد قطب وعبقريات العقاد على أبعد تقدير.

واختلفنا معهم كثيراً وتصالحنا مراراً، ثم نمت بيننا روح الزمالة والصداقة بعد أن عرفونا بمعزل عن التنظيرات والشعارات وبقينا أصدقاء حتى افترقنا وبقينا نسمع أخبار بعضهم عبر الإذاعات ورسائل ما لبثت أن تلاشت وغابوا كما غيبتنا دروب الحياة وتلاشت احلامهم بوطن يجمعهم وطن موحد يسمى فلسطين.

على أن علاقتي مع الباكستان لم تنقطع وبقيت أزورها مرات ومرات متدرباً وزائراً وسائحاً.

وذات زيارة عمل للباكستان وبعد سبعة وعشرين عاماً طلبت من قائد الكلية أن أزورها بصحبة وفاء فقط لترى المكان الذي قضيت فيه سنتين من التدريب في نهدة العمر.

وأرسل لنا مشكوراً زورقه الخاص، ووصلنا الكلية عبر البحر وكان الوقت عصراً..وهو وقت ما يسمى بالحصص الإضافية أو الجزاءات العسكرية للطلاب المقصرين أو الذين اقترفوا خطأ ما أو الذين يحتاجون جرعات تدريبية إضافية.

ورأت وفاء العديد منهم يركض رافعاً البندقية وآخرين يزحفون على الأرض والبعض وقد أنهك من التعب وتمدد على إسفلت ميدان التدريب.

وتساءلت هل كان يفعل بك أنت مثل ذلك؟

ـ بالطبع وربما أكثر.

ـ آه عرفت، الآن لمَ أنت مليء بالعقد، إن من يمضي في هذه الجزيرة عامين تحت هذا الظروف لا يمكن أن يبقى سوياً أبداً.

ـ أستاهل اللي جيت أفرجك وأمشيك.

وضحكنا معاً وكانت سعيدة بهده الزيارة وكنت استرجع زمناُ لن يستعاد.

القروي يغادر

عدت من الباكستان وتم تعييني في مدينة الجبيل المدينة الحالمة على شواطئ الخليج العربي.

تلك المدينة التي عبرتها حضارات وثقافات وغزاة وحالمون، وبقيت كما هي يسكنها عشائر من قبائل الخوالد والدواسر والبوعينين وسواهم ورغم أن حقل (البري) النفطي لم يكن بعيداً عنها، إلا أنها بقيت كما هي واحة صغيرة من النخيل ومراكب الصيادين والقادمين من عمق الدهناء، لكن تلك العزلة وذلك الهدوء كانا يحتضران وكانت الجبيل تتغير..لتغدو بعد سنوات قليلة فقط أكبر مدينة (بتروكيماوية) على خريطة هذا العالم وأحد أحدث وأجمل المدن.

عندما وصلتها كان يعبرها من الشرق إلى لغرب شارع واحد هو شارع (جده على ما أظن) تقوم عليه المتاجر والمطاعم ويغص بوجوه القادمين من أقاصي الأرض والباحثين عن الثراء، وإلى الشمال منها كانت تنهض الجبيل الصناعية أو الهيئة الملكية، وجنوباً منها تشكلت قاعدة الملك عبد العزيز البحرية الحديثة،

حيث تم تعييني ضابطاً متدرباً على ظهر إحدى السفن الصغيرة التي كانت قد وصلت من أمريكا، كانت الجبيل باختصار أرض الأحلام الواعدة.

قاعدة الملك عبد العزيز البحرية هي أيضاً حكاية، حكاية التحولات الكبرى واختصار الزمن، غير أن الإنسان يظل هو الإنسان يحتاج العمر كل العمر ليتشكل.. والمال يساعد أحياناً لكنه لا يقفز على منطق الأشياء وقانون التطور بل وربما يخل بميزان التطور الطبيعي.

ولقد كنت شاهدا عصر على زمن يمضي وآخر يتشكل، وتاريخ يُمحى وآخر يُكتب وكان العصر هو عصر الطفرة، والزمن هو زمن التحولات، تحولات الإنسان والمكان.

بدأت حياتي بشراء سيارة صغيرة وسكنت داخل القاعدة، حيث المساكن الحديثة المجهزة للعزاب والمتزوجين على السواء، كان كل شيء جديداً وأنيقاً ومنظماً كما في القواعد الأمريكية..لأن شركات أمريكية هي من خطط وبنى هذه القاعدة وكانت هناك وفرة في كل شيء إلى حد البذخ، يقوم على خدمتنا جيش من العاملين من الفلبينيين والباكستانيين وكنا ودون إحساس بالفقدان نغادر حياتنا القديمة نتشرب ثقافة جديدة وحياة جديدة، حياة حملها معهم القادمون حديثاً من أمريكا .فقد كنا نقضي أمسياتنا في لعب

(البلياردو) و(البولينج) و(الفزبول) ونحتسي قهوة(الكابتشينو) و(الميلك شيك) و(الأكسبرسو) ونضرب مفاتيح جهاز (بيانو) كلف ثرورة صغيرة يزين مدخل نادي الضباط وكانت مفارقات مضحكة مبكية لنا نحن القادمين في معظمنا من العشش والخيام وبيوت الطين ومن القرى البعيدة المعدمة، وكنا نتشرب تلك الحضارة ببطء ويعاد تشكلنا بقشرة خارجية من التمدن المزور. وكنا نخلع عن ذواتنا الثياب القديمة واللغة القديمة، لكن أرواحنا بقيت كما أرواح القرويين البسطاء الرافضين لكل تغير يمس جوهر علاقتنا ووعينا بالآخر والعالم والنظرة الأبعد للحياة.

تغير الإنسان يصنعه الزمن وتراكم الثقافات وقوانين التطور البطيء لا يشتري ولا يستورد وسأقول لكم حكاية ذات دلالة على ذلك.

عدت ذات مساء من الخارج وكنت أسمع خبطاً وضجيجاً في غرفة الغسيل الملحقة بالسكن، وعندما فتحت نشافة الملابس وجدت أحد الزملاء قد غسل حذاءه العسكرية (أعزكم الله) ووضعه في نشافة الملابس لتجفيفها في الحال ولم تكن نشافة الملابس قد صممت لمثل ذلك وكانت تدور والصوت يدوي. هكذا كنا نستعجل التطور ونختصر الزمن ونستخدم الأشياء ربما في غير مكانها والحكايات في هذا المجال تطول وتطول.

تعلمت أبجديات القيادة الأولى للسيارة، وكم هي مفارقة أن أتعلم قيادة السفينة قبل أن أعرف قيادة السيارة، وكدت أسحق مرتين لأني أنا أيضاً كنت أستعجل الأشياء، وبدأت أتعرف على المنطقة الشرقية الطيبة العشرة والعشيرة، أتعرف على عيون الماء وغابات النخيل والقلاع التي أنشئت لصد الغزاة في تاروت ودارين وآبار النفط التي تسعل في الفضاء دون توقف والصحاري اللانهائية والأسواق التي كانت جميلة وتعايش الأجناس والمذاهب والطوائف الذي كان يميز الإنسان والمكان.

مدن صغيرة حالمة، الأوجام وعنك وتاروت وسنابس والعوامية وسيهات والقطيف والقديح والمبرز والأحساء وما هو أبعد، وفي كل مدينة كنت دائماً أجد واحداً وأكثر من أهل قريتنا ممن غادروها بحثاً عن أفق وحلم وعمل ولأن جلهم لا مؤهلات علمية لديهم عدا الشباب، فقد انخرطوا جميعاً في السلك العسكري كجنود في الأغلب، في الشرطة والأمن وقوات الطوارئ وقطاعات القوات المسلحة وحرس الحدود، وكان الجميع يحتفي بقدومي كالضابط الأول وربما الوحيد القادم من قريتهم أو قريباً منهم، كانوا يزدهون بذلك ويفاخرون به ويقدموني لزملائهم ويصرون على واجب الضيافة رغم الشح والمشقة لكنني أبداً لم أشعر أني مختلف عنهم.

فقد عشت طفولتهم وزاملتهم الرعي والحصاد وشقيت معهم وحفيت، وما زالت بقايا الشوك في قدمي وهناك من كان أفضل

مني في كل شيء، لكني ربما كنت أكثر حظاً منهم أو ربما أكثر تمرداً.. ولكني لست الأسعد على كل حال.

المؤلم أنهم أمضوا جل حياتهم هناك، كبروا وعادوا ليتزوجوا ويحضروا زوجاتهم أيضاً وكونوا عائلاتهم الصغيرة وبقوا حتى سرقهم العمر، وغدت هذه المدن الموزعة هي البديل عن قراهم، آخرون عادوا بعد تقاعدهم ولكنهم (جلهم) كانوا دون حصاد غير راتب تقاعدي لا يفي بأبسط الاحتياجات وفراغ كبير في مفاصل ذاكرتهم يستعصي على الملء والتبرير.

حسن شبلي الذي ترك قطيع أغنامه قبل ثلاثين عاماً.. عاد للقمري ولم يدر ماذا يفعل ببقية العمر فاشتري قطيع أغنام آخر واستأنف الرعي مجدداً كأنه غادر البارحة، كأن تلك الثلاثين عاما لم تكن أكثر من شهقة في فضاء قصي، فضاء دون سماوات تسد الفراغ، وعندما قابلته أخر مرة ضرب الأرض حتى تطاير التراب من حولنا كان يؤدي التحية العسكرية، كما كان يفعل كلما التقينا أو أنه كان يستدعي ذكريات غاربة ولعله كان يسخر.

ـ حسن خلاص ما نسيت العسكرية؟.

وتعانقنا وضحكنا وحاولنا أن نستعيد حكايات الأمس عندما كنا صغاراً نتشاطر الركض واللعب واكتشاف بكارة الأشياء ولكن؟.

ورغم أن الفضاء هو الفضاء والأرض هي الأرض وربما الهواء

أيضاً، إلا أن شيئاً لم يعد هناك، شيئاً مضى ولن يسترجع، لا ليس العمر ولا الشباب، شيئا انطفأ داخلنا وأنكسر، إنه الحلم.

وماذا بعد ذلك؟ الزواج نعم الزواج، وهذا ما ذكرني به الأهل وكنت نسيته أو تناسيته في غمرة البحث عن نجاح، وتقدمت لفتاة قريبة لي طيبة وبسيطة وقنوعة وتحبني وكنت أحمل لها ألفة قربي وظلال حب غذته سنوات التغرب وخيال الشباب وروايات المنفلوطي.

لكن الحب غير الزواج والحلم غير الواقع، وتم الزواج والطلاق في شهر لا أكثر، وكانت صفعة غير رحيمة لي من الحياة، وربما كنت بحاجة لها لأكتشف أن للعالم وجهاً أخر وأن هناك أسئلة لا إجابات لها وأن هناك مصائر تتبدل وأقدار تكتب في كتاب كبير وغامض..كتاب الحياة.

ومات داخلي للأبد القروي البسيط الذي لم يتعلم أبداً طرح الأسئلة، القروي الذي رسب يوماً في اختبارات القبول الطبية في كلية الملك فيصل الجوية ولم ينجح سوى في عمى الألوان. رحل القروي الذي عاد واكتشف وبثمن قاس أن الألوان هي أيضاً غير التي نرى ونظن.

ولم تكن هناك أسباب كبيرة لذلك الفشل، كانت هناك أسباب، لكنها كانت قابلة للحل وتحدث دائماً وكل يوم. لكن الشباب الذي

لا يقبل أنصاف الحلول والجهل بطبيعة الأشياء والعلاقات والشعور المزيف بالكرامة وربما الافتقار إلى النبل والأنانية المطلقة حطم كل شيء.

وافترقنا ولا ذنب لها أبداً، كان خطئي أنا وغلطتي أنا فقط ولا أحداً سواي.

والآن ومن هذا البون الشاسع من العمر، حيث رؤية الأشياء بحيادية ممكنة لا أشعر نحوها بغير الآسف وأتذكر أنها كانت لا تقرأ ولن تقرأ هذا الكلام أبداً وإلا كنت طلبتها غفراناً لا أستحق.

ضربةٌ على الرأس

يغدو الخليج في الصيف رخياً كصدر مرضع نبحر فيه شمالاً من مدينة الجبيل باتجاه جزيرة الجريد المهجورة عدا مخلفات الصيادين وبقايا السهاري والهاربين من العسس، نتجه بعد أن نبلغها غرباً باتجاه جزيرة القرن ثم القرين والجنة حتى نصل جزيرة (حرقص) شمالاً وحيث أبارنفط (السفانية) وحقل (الظلوف) قريباً من حدود الكويت البحرية ونعود نبحر جنوباً حتى مداخل قناة البحرين تضيء لنا أنوار الناقلات العملاقة ومشاعل حقل(أبو سعفه) وآبار النفط المشتعلة.

وفي ليالي الصيف، يغدو الإبحار وقت من الفتنة اللامشروطة، وتهب نسائم الخليج في المساء فتمحو شيئاً من سطوة الرطوبة وتعلو وشوشة الموج ورقص الدلافين وأضواء الناقلات المبحرة من ميناء رأس تنورة وفرضة (الجعيمة) وموانئ الكويت ومن حقول نفط العراق.

ونفتح قناة الاتصالات الدولية (VHF Channal).. نسمع تعليقات البحارة البذيئة من سفن لا نعرف مواقعها على الماء ونداءات موانئ

موزعة وحكايات صيادين ومهربين وهاربين وعالم افتراضي، عالم الماء.

وتزين السماء آلاف النجوم التي نعرف أسماء بعضها ولا نعرف البعض الآخر.. نجوم ومجرات وشهب وكويكبات ومذنبات وجلهاذات أسماء عربية (العيوق)، (الدبران)، الدب الأكبر والأصغر، بيت القيوس، الجبار وبنات نعش وأسماء أخرى لا أتذكر. والخليج في الليل حنون وودود ومهادن ووفي لحكايات الغوص وأيام اللؤلؤ والوجوه التي عاشت منه وعليه قبل أن يغدو مسرحاً لحروب وأساطيل وأطماع وتلوث يكاد يقتله.

وفي النهار أيضا تعبر قريباً منا قوارب صيادين وناقلات نفط وأساطيل غريبة وسفن تجسس روسية متخفية على شكل بواخر مدنية لكننا نعرفها من لاقطاتها (Antenas) المتعددة وتحركاتها المريبة، وتعبر فوق رؤوسنا الطائرات العراقية العائدة من قصف المواقع الإيرانية في ما أصبح يخلد بحرب الخليج الأولى.

كل شيء في البحر مباح ولا خوف عدا الحذر من الألغام الطافية على سطح الماء والمتربصة بنا والقادرة على تحويل سفينتنا الصغيرة إلى شظايا، ألغام حرب العراق وإيران التي لا تميز العدو من الصديق ويغير أماكنها الريح والموج كل لحظة.

وشكراً لهذه الألغام التي من أجلها دخلنا ميناء البحرين وبقينا

هناك أسبوعين نساعد في تنظيف قناتها البحرية ومدخلها الوحيد قبل إنشاء الجسر مما قد تكون قد جرفته رياح الشمال من ألغام مرئية أو غير مرئية ترقد في أعماق الماء القريبة.

وفي مكتبات البحرين اكتشفت كتب الغواية الأولى الكتب التي كنت أسمع عنها دون أن أمتلكها أو أقرأها، فضائحية البرتو مورافيا الإيطالي ووجودية سارتر وكامو وهديجر وروايات العبث وأنا شيد مالدورور وفلاسفة اللايقين والبحث الأزلي عن الوجود والأسئلة الكبرى التي لا إجابات مريحة عليها.

كنت حينها مجرداً من الأمل ووحيداً من العون وخارجاً من تجربة طلاق أليمة وأبحث عن قناعات جديدة. ودفنت نفسي في هذه الكتب أقرأ وأقرأ وأقرأ ولا شيء يغري في الجبيل عدا العمل والقراءة وبضاعة الحنين.

ولكن هل وجدت عزاءات أو إجابات أو مدد؟

بالطبع لا لكني، وأظن ـ غير جازم ـ أنها أمدتني بوعي مبكر وأفهمتني وبضربة قاسية على الرأس أن الحياة هي الحياة، نهر من العذابات ولا عزاء للحالمين.

هذه الكتب وما قبلها وما سوف أقرأ بعد ذلك هي من صنع جزء كبير من ذاكرتي وتفكيري وحكمي على الحياة.

أحببت الكتب سافرت البلاد من أجلها وغافلت العسس في

المطارات ولي في كل منفذ قصة مع الرقيب وتعهدات ما زال بعضها ينتظر حضوري.

قلت مرة عن الكتب إنها كالنساء بعضها ممتع وبعضها ممل وبعضها غامض وأخر سمج، ومنها ما يجعل الحياة رحلة ممتعة ومنها ما يجعلك تتخلى عنه أو هو يتخلى عنك أيضاً عند أول منحنى.

بعضها يعادل الذهب وأخرى لا تصلح إلا لمسح النوافذ ولف شطائر البيض والفول ولا أكثر.

الكتب كالنساء دافئة وحميمة وكلها يؤخذ بالأحضان أيضاً وتطوى تبلى لكن دلالاتها لا تتبدل.

ومع الكتب أشعر بألفة المكان حتى إن كان غريباً، لا أشعر بالوحشة في مكانٍ به أطفال وكتب وزهور، هذا ما أشعر به وبقي ولم يتغير.

صحيح أن بعض الكتب (والنساء) أيضاً أوصلنني إلى حافة الجنون وأذكى خصامي مع الحياة لكن أكثرها ساعدني على احتمالها وما الحياة دون كتاب؟.

الكتب هي خلاصة أفكار الناس، الثقافات التجارب والعصور، والذين يمنعون الكتب عن الناس مهما كانت أسبابهم هم أشرار يستحقون الشنق أو الإعدام هكذا كنت أظن .

وعندما أحاول أن أتذكر وأستحضر أسماء الكتب والكتاب الذين رافقوني رحلة العمر يتجسد أمام ناظري رتلاً من الكتب وصفوفاً من المفكرين وتاريخاً كبيراً من الثقافات والوجوه القلقة.

الروائيون الكبار نقلوا لي الحياة كما هي لا كما أظن، بشرورها ويأسها ونحسها وبهجتها (كزنتزاكي) في زوربا صور الحياة على أنها فرصة تطرق الباب مرة واحدة ولا يجوز أن تضيع.. لأنها إن ذهبت فقدت للأبد، وصور الحياة على أنها أغنية ذات مقطع واحد ووحيد، صور الحياة على أنها شهقة طويلة وممتعة ولا أكثر.

ماركيز في رواياته لون الحياة بالسحر والغموض والغرائبية والمحال الجميل، أما إزابيل اللندي ورغم البون الشاسع في الجغرافيا والتاريخ والثقافة فقد أبكتني من خلال قلق المنافي والتغرب ووحشة الليالي المنسية والحب المتعَب والرضوخ للهزيمة عندما تقفل سبل النجاة وعندما يتطلب منا أن نواجه الحياة بضلوع معراة من اللحم والحلم والحماية.

والشعراء الحقيقيون أعلنوا منذ البدء خصامهم مع الحياة وكل من لا يتخاصم مع الحياة ليس شاعراً، كما أن كل من يفكر بالموت ليس شاعراً، الحلاج في تساؤلاته والخيام بقناعاته المطلقة في رحمة الله، وأمل دنقل الخارج على سلطة القبيلة وأعراف الجماعة ولوركا.. وارغون ونيرودا ودرويش وآخرون.

الفلاسفة (اسبنيوزا وهيجل وديكارت وهديجر) وغيرهم طوحوا بي شرقاً غرباً ثم أعادوني كما بدأت للمربع الأول، ذهبت معهم إلى الينابيع وعدت أكثر عطشاً، تقدمت إليهم بسؤال ورجعت مثقلاً بالأسئلة.. وتلك هي مزيتهم. فالكائن البشري القلق هو من يستحق الحياة لا غير ومن يدعي أنه امتلك الحقيقة فقد ضل.

لقد سافرت مع رفاقي الكتاب دون جوازات أو تذاكر سفر، عبرت البحار مع صديقي البحار هرمان ملفيل وبطلنا آخاب وهو يصارع قدره الأقوى والأحمق ولكنه لم ينهزم ولفظت أنفاسي مع همنقواي تحت ظلال جبل كلمنجارو الأستوائي وعبرت مدار السرطان والجدي مع هنري ميلر وعاندت كما عاندت أبطال إشتاينبك وهم يرفضون الاستسلام للرأسمالية البغيضة وأنهزمت كأبطال دستفوسكي الذين تسحقهم المفاجآت دون غنائم تذكر.

وحملت قلق مالرو وكامو الغريب وسخرت من الحياة كما سخر منها تشيخوف وزملاؤه الروس العظام في تلك البلاد الفسيحة واستشعرت رعب السجون مع هنري شاير وحلقت في السماء التي غدت قبره مع سانت أكزوبري وتمنيت لو غدا أنا قبري الماء أيضاً ولكن؟.

وحلمت مع الحالمين، حلمت مثلهم بالثراء والاكتشاف

والرحيل وبنساء جميلات لايهرمن ولا يخذلن وبحب يستعصي على الذبول.

وكثيراً ما أفقت من أحلامي على تلك الضربة القاسية على الرأس والتي ما تفتأ تذكرني وتقول: عمرو تذكر أن الحياة هي الحياة لا أقل ولا أقل ولا أقل.

ووجدت أيضاً أن بعض الكتب وبعض الكتّاب أصنام لا أكثر صنعها الخوف من الاتهام بالجهل بعضها كرسه المال وبعضها كرسته السلطة وأخرى كرسها الجهل الكبير وما أكثر ما رأيت من ذلك في شرقنا العربي النائم من الماء إلى الماء.

وحاولت أن أكتب أيضاً ولكن كيف أكتب والقلم مكسور والدواة جافة كصحرائنا حيث لا مكان للتساؤل.. ولا أنهار تفضي إلى البحر ولا قطارات تعبر في المساء ولا خيانات ولا حكايات ولا وشوشات حب ولا لقآت مسروقة في شوارع خلفية وكل شيء لدينا قد اغتسل ثلاثاً بماء طهور.

ومازلت أقتني الكتب..رغم أني لم أعد أقرأها إلا قليلاً، لم أعد أجد الوقت ولا الهاجس للاكتشاف أحس أني أكبر وأن الكتب لن تعطيني أكثر مما أعطت وما عدت أحمل مصباح الدهشة ولا حمى التساؤل والعالم تغير أيضاً، وأنا لم أعد ذلك الشاب المتوثب الذي يسكن الغرفة رقم (١٩) في سكن الضباط العزاب في القاعدة

البحرية في مدينة الجبيل.. ولا ذلك الشاب المندفع الذي كان يسهر إلى ليل متأخر في نادي جازان في حي العشيماء يقرأ روايات القاهرة الجديدة والوسادة الخالية وبعد الغروب ويحدق مبهوراً في قامات كبيرة كالعقيلي والسنوسي وغيرهما من الرموز الكبيرة، ولا أظن أن حي العشيماء الجازاني أيضاً بقي كما هو ولا الرفاق الذين شاطروني عزبة فقيرة بها بقوا كما هم، رفاق مضوا وآخرون تبدلوا والكثير منهم كمثلي طحنهم قطار الحياة البليد.

خذنا إلى المرقص

متى سمعتم بأمريكا؟ وكيف سمعتم عنها أول مرة..؟ حاولوا التذكر.. وأنا سأقول لكم..

كنت قد بدأت وأنا في الصف الرابع الابتدائي بكتابة أسماء المدن القرى التي أعرف.. لا أتذكر لماذا كنت أفعل ذلك..؟غير أنه كان لي بالتأكد أسبابي الخاصة والمقعنة حينئذ.

أمي كانت مصدر معرفتي الأولى.. وكانت ـ رحمها الله ـ كلما تذكرت اسم قرية أو مدينة قالتها لي.. كانت تريد إدخال الفرح إلي.. أو ربما كانت هي أيضاً تشاركني حلم الأسماء البعيدة.. وكنت أضيف إلى القائمة التي تطول.. أسماء قرى مثل الحسيني المعترض. سنقفورة.. أفريقيا.. قوز الجعافرة إستراليا.. تركيا.. الظبية.. الخوجرة.. أمريكا

كلها كانت لدي أمكنة .. تتساوى القرى والمدن والقارات.. وكانت القائمة تطول.. وتطول وعندما امتلكنا أول جهاز راديو كبر العالم علي وتوسع..العالم الذي كان ينتهي عند حدود الأفق حتى

عندما كنت أعتلي عشتنا العالية وأحدق في الفضاء كانت السماء تطبق على الأرض عند حود الأفق.. ثم لا شيء وعندما أسأل من حولي ماذا خلف هذا الأفق.؟ وكان الجواب.. لا شيء.

ودخلت ذاكرتي أسماء أخرى ونسيت القائمة البكر أو ما عادت تتسع.. أصبح العالم أوسع وأقرب للتصور.. وسمعت بأمريكا وصوت أمريكا وصنع في أمريكا لكنها لم تكن أكثر من مكان ربما لا يختلف كثيراً في ذاكرتي عن القنفذة والدرب والخوبة.

هكذا كنا نحن في القرى.. بسيطة أحلامنا ونقيس الدنيا طبعاً لتصورنا ولم نكن نظن أن العالم بكل هذا الاتساع والتعقيد وربما القسوة.

وأخيراً ارتبطت أمريكا لدينا بالقوة والعظمة والغطرسة من خلال حرب السابع والستين وهبوط أول إنسان على القمر وحرب فيتنام.

وكنت أستمع إلى برنامج الإعلامي الشهير (بدر كريم) (تحية وسلام) كل صباح جمعة والذي كان يتصل فيه بالمبتعثين في أمريكا وكندا وبريطانيا وبلادٍ أخرى ثم يوصلهم بذويهم عبر الهاتف.

ومن خلال نشيج الآباء ودموع الأمهات عرفت أمريكا أكثر.. عرفت أسماء ككلفورنيا ونيوجرسي ومتشجن، عرفت أريزونا ولويزيانا ولوس أنجلوس.. وهيوستن وبوسطن وعرفت مصطلحات

(كالسمستر) والكورس.. وشطح بي الخيال بعيداً وتخيلت نفسي أحد أولئك المبتعثين الذين سيذهبون يوماً نحو ذلك السديم وسيتصل بهم بدر كريم يوماً ما. بل كنت قد حفظت مسبقاً ما الذي سأقوله.. وأي الأغنيات سأهدي لعائلتي وأسماء الأقارب الذين سأبلغهم تحياتي.. وهل أذكر أسماء النساء من عائلاتي أم لا أفعل؟ كنت أحلم.. أحلم كثيراً في تلك القرية المنسية إلا من النسيان. في ذلك الزمن البعيد.. رغم أنه لا هاتف لدينا ولا كهرباء ولا أم أبعث إليها تحياتي البعيدة. لكنه الحلم.. يقولون لاتتنازل عن حلمك.. مهما غدا نائياً.. أستعمله بوصلة وشد نحوه المسير. وهكذا كان.

لكن أول رحيل لي لم يكن لأمريكا.. رغم أنها كانت خياراً متاحاً.. لأن شخصاً كريماً قال لي: إن الذين ذهبوا إلى أمريكا فشلوا هناك النساء وحياة الليل وكل المغريات.. اذهب إلى الباكستان لتنجح.. وستذهب إلى أمريكا يوماً ما.

ولأني أخاف الفشل ذهبت إلى باكستان وبقيت أمريكا حلماً مؤجلاً، والعمر أيضاً يبدل أحلامنا وأولوياتنا.. العمر يكتب أخرى ويمحو.. وهكذا نحن.

وأخيراً تم اختياري مع اثنين آخرين للذهاب إلى أمريكا، دورة مدتها ستة أشهر.. كنت متهيباً ومتردداً ولم أعد مفتوناً بأمريكا كما كنت صغيراً.. لكن البحارة العائدين من هناك بأطياف ذكرياتهم التي

تركوا كانوا يتحدثون عن جنة مفقودة.. وكانوا يقولون ليّ اذهب.. هل أنت مجنون.؟ لا أحد يرفض الذهاب إلى أمريكا..؟

ومن مطار الظهران الدولي وعلى خطوط طيران (PAN AMARECA) غادرت في رحلة استمرت ثلاث عشرة ساعة أنا وزميل آخر حتى هبطنا في مطار جون كندي، وسط حرارة تبلغ درجتين تحت الصفر، وأنا أخب في بدلة كنت قد اشتريتها من متاجر الخبر.. بدلة صيفية بيضاء أكبر مني، لأني لم أجد مقاساً ملائماً لي.

وغادرنا بوابة المطار ليتلقفنا سائق تاكسي أسود... سألنا أنا وزميلي عن مقصدنا..؟ كنت أظن أني أتحدث الإنجليزية بقدرٍ معقول.. غير أن لأمريكا انجليزية مختلفة.. وأخيراً فهم أننا نريد فندقاً ولم نسم له فندقاً في مدينة الثمانية ملايين نسمة.

وانطلق بنا في شوارع (التفاحة الكبيرة) كما يسميها أهلها.. كانت المباني كئيبة، والأشجار معراة من الأوراق كما تفعل في كل شتاء.. حتى وقف بنا أمام أغلى فنادق المدينة..

هذا الفندق تحولت ملكيته في ما بعد للأمير الوليد وهو فندق (الدوف ستوريا)..

وخف إلينا موظفو الاستقبال بلباسهم (الفكتوري) وعربات نقل

الأمتعة المذهبة وبعد إنهاء إجراءات التسجيل عرج بنا المصعد في سرعة ضوئية للدور الثاني والثلاثين.

وفتحت الستارة.. كانت الغرفة تطل على ميدان (ماديسون أسكوير).. وكل شيء كان يلبس حلة الشتاء السوداء وبقايا الصقيع الذائب.

حاولت أن أنام فلم أستطع رغم التعب.. كنت أنتظر فارق التوقيت لأتصل بقريب لي في أبي عريش أطمئنه أني وصلت أمريكا.. لكن الوقت كان مبكراً جداً.

ولبست كلا ملابسي وبكل ألوانها وهبطت حذراً أتفقد المدينة.. لم أبتعد كثيراً عن الفندق مخافة أن أضيع، كنت جائعاً غير أني كنت خائفاً من لحم الخنزير، وكان البرد قارصاً وملابسي مجتمعة لم تمدني بأية معونة.. وقررت أن أعود إلى الفندق وهناك أطلب الغداء.

ورفعت سماعة الهاتف.. وطلبت طعاما وكررت كلمة رز أكثر من مرة..رز.. رز أرجوك (Rice pleas... Rice More Rice) وبعد قليل فتح الباب عامل يدفع عربة كبيرة مثقلة بالأطباق والشوك والملاعق والمناديل والشموع.. وفوق ذلك تمني لي وجبة هنيئة ومضى.

وبدأت برفع الأغطية أفتش عن الرز الموعود.. ووجدت قليلاً

من الأرز الأبيض.. وقليلاً من البطاطس المهروسة.. وشريحة لحم كبيرة وخضار السوتيه وملحقات كثيرة للزينة لا للأكل.

والتهمت الرز حتى أخر حبة نائية في الطبق.. ولم أستطعم البطاطا المهروسة.. ولم أقرب اللحم خوفاً أن يكون لحم خنزير ولا الخضار مخافة أن تكون طبخت هي أيضاً بدهن الخنزير.. ولم أشبع.

وتمنيت في ذلك البرد القارص قطعة من خبز الذرة وفنجان شاي معطر بالشمطري أو النعناع.. ولكن هيهات.

هذه هي إذاً أمريكا.. كذبة كبيرة لا أكثر، وهكذا أصدرت حكمي المتعجل كما أفعل وكما لن أتغير.

وعندما تيقنت أن قريبي قد وصل مكتبه في أبي عريش.. رفعت السماعة الهاتف وبعدوقت خلته دهراً:

- الووو يحي أنا عمرو من أمريكا

- أنت صادق..؟ وكم الساعة عندكم..؟

بعدها نمت ولم أستيقظ إلا على صوت طرق الباب.. واستيقظت دون أن أدري أين أنا في القمري أو في الجبيل.. كان زميلي نواف على الباب يستعجلني الخروج لنرى نيويورك.

- برد يا نواف.. برد.. وضحك مني.. كان أكثر خبرة ووعياً

بالحياة.. وكان قد سافر إلى لندن ذات صيف وكان يعرف كيف يختار ألوان ملابسه وماذا يلبس.

وهبطنا ووجدنا مطعماً هندياً أعرف أطباقه الحارقة، وأكلت حتى شعرت بالعرق يطفر من جبهتي.

واشتريت معطفَ شتاءٍ ثقيلاً يمتد إلى منتصف الساقين وضحك نواف وقال أني أشبه المفتش (كولومبو) وقلت له لا إني أشبه وزير خارجية دولة أفريقية.. وضحكنا معاً وخرجنا نستجلي مباهج الليل.. ليل مدينة نيويورك البهيج والمقلق.

وفي اليوم التالي، أخذنا طائرة أخرى للجنوب حيث تعقد دورتنا.. وهبطنا في مطار مدينة تشارلستون الساحلية في ولاية كارولينا الجنوبية الدافئة.. حيث استقبلنا مندوباً من البحرية الأمريكية وأخذنا إلى إحدى أكبر قواعدها البحرية على المحيط الأطلسي أثناء الحرب الباردة، حيث الغواصات النووية ومعقل قواعد سفن كسح الألغام البحرية على المحيط الأطلسي.

وكان كل شيء معداً مسبقاً، ووجدنا زميلنا الثالث قد سبقنا واشترى سيارة.. وبشّرنا أن الدورة لن تبدأ قبل أسبوعين.

وقررنا الرحيل جنوباً إلى أصدقاء يدرسون الطيران في ولاية فلوريدا وفي مدينة (بنسكولا) تحديداً الرابضة على خليج المكسيك

وقبل العاشرة صباحاً كنا على طريق (HIGW AY 95 S) موغلين

نحو الجنوب.. عبرولاية جورجيا. ومن مدينة (جاكسون فيل) أخذنا الطريق السريع رقم عشرة غرباً وكانت أمريكا كلها مباحة لنا وكل ذنوبنا مغفورة منها كسعوديين في ذلك الزمن.. حتى وصلنا مدينة بنسكولا في فلوريدا على خليج المكسيك الدافىء قبل منتصف الليل.

وهاتفنا صديقنا من إحدى كبائن التلفون.

ـ عوض.. وصلنا.. نحن عند ماكدونالد

ـ أي ماكدولاند البلد فيه عشرين واحد..؟ صحيح إنكم بدو

ولكنه وصل إلينا بعد أن أعطيناه اسم الشارع والمحطة القريبة.

وبعد السلام سألناه:

ـ على فين تأخذنا ياعوض..؟

ـ طبعاً للشقة، الكبسة جاهزة.. أكيد وحشتكم الكبسة؟

ـ والله أنت بدو مو إحنا.. خذنا إلى المرقص.

في زيارة صديقي هرمان

وفي أمريكا بدأت أكتشف أمريكا التي كنت أحسبني أعرف من خلال الكتب.. بدأت أحاول اكتشاف هذا الحلم الذي غير وجه العالم وجعله مقصد الحالمين والمغامرين والباحثين عن أمل الحلم الذي جعل أمريكا أرض الفرص و(الألدرادو) والذهب والمعجزات كنت أفتش عن سر المعجزة.

لكن أمريكا لا تعطيك نفسها بسهولة.. ورغم أني استأجرت سيارة وفتحت حساباً بنكياً واستخرجت رخصة قيادة ومع الرفاق استأجرنا شقة وكل ذلك في يوم واحد، إلا أني بقيت أفتش عن المعجزة.. لأننا نحن القادمين من الشرق نؤمن بكل المعجزات والأساطير إلا الأنسان وقدرة الإنسان.

دائماً نبحث عن المعجزة في شيء آخر في مكان ما.. في الجن، في الحظ، في دعاء الوالدين في الخوارق..لكني هنا لم أر شيئاً من ذلك.. لم أر سوى الإنسان وسعي الإنسان ونجاح وفشل الأنسان.

ولكن هل كنت سعيداً وقد هبطت أمريكا..؟ لا أبداً.. لا أبداً.. لمَ إذن.. لم..؟

ربما لأني رفعت سقف أحلامي كثيراً وتصورتها فردوساً سماوياً أهبط فيه فإذا الحسان ينتظرنني وإذا الحياة هنيئة كحلم وإذا كل شيء كن فيكون كما نحب.. لكن أمريكا غير ذلك.. ولقد كانت لي أمريكا وما زالت أرضاً نائية جداً وقاسية جداً ومتكبرة جداً على البسطاء مثلي.

لقد زرت أمريكا مرة أخرى وثالثة ورابعة وعشت فيها.. وعبرتها شرقاً وغرباً من المحيط إلى المحيط.. شمالاً وجنوباً من كندا للمكسيك، ونزلت أفخم فنادقها وعرفت أجمل مآثرها ودخلت قواعدها العسكرية والسياسية.. لكنها بقيت لدي أمريكا ولم تزل.. أرضاً بعيدة لا أشعر فيها بغير الشجن والبعد ويتملكني فيها الإحساس بالنفي.. وجور المسافات وفردية الإنسان..

ولقد رأيت جنسيات من مشارب كثيرة من الأرض.. تكدح هناك ليل نهار.. ولو عملت بنصف ذلك الجهد في بلادها لعاشت حياة رغد وترف ولما احتاجت إلى وجع الغربة.. غير أنها تظل هناك تعمل في المطاعم ومحطات البنزين أكثر من ثماني عشرة ساعة، وفي بيع الجرائد وغسل الأطباق في الشوارع الخلفية فقط لتبقى في أمريكا وليقال إنها في أمريكا.. وبعد أن تكبر ويمضي

العمر يتعذر عليها العودة إلى بلادها والبدء من جديد.. وتمضي بقية العمر في صقيع الاغتراب والندم والخوف من النكوص.. كثيرون رأيتهم وقد أحرقوا مراكبهم وخذلوا.

وعرفت أني لم أكن أول من صدمته أمريكا.. الأمريكيون يعرفون ذلك عن بلادهم.. يسمون ذلك بالصدمة الحضارية أو الثقافية (Culture Shock).. ويدرسونه للقادمين مثلي الذين يبقون معلقين بأمسهم والذين يفتقدون سماواتهم الحنونة وصوت آذان الفجر وأصوات الباعة وجرائد الصباح وأيادي الطالبات الخارجة من طغيان العباءات السود.. يفتقدون ضجيج الحياة الصاخب.. حياتنا التي ألفناها كل يوم.

وهناك كتبت أول قصة في مجموعتي القصصية (طائر الليل) بعنوان مشهد لم يتم.. بدأتها:

عندما أوليتكم ظهري بكيت فيكم الحنان والأمان ووداعة الوطن.. وخرجت كضال يبحث عن هداية، سادراً في لجة الشجن، مثقلاً بحلاوة الذكرى التي لا تبوح.

لكني لا أستطيع أن أنفي عن أمريكا أنها أرض الأحلام الموعودة.. والحرية المسؤولة وصيانة كرامة الإنسان.

كنت أفتش عن سر عظمتها.. الذي يُلمس ولا يرى.. هو ليس

سراً واحداً.. وسبباً واحداً.. أسباب كثيرة لعل منها روح الجماعة.. تكافؤ الفرص.. الإحساس المطلق بالكرامة.. وقدسية القانون.. أعني القانون الذي لا يعرف الاستثناءات أو التمايزات أو التفسيرات.. والكل سواسية.

عندما ضبطني رجل البوليس مسرعاً..قلت له إني لا أعرف القانون ولا أجيد اللغة الانجليزية.. وقال لي: إن بلدك كان يجب أن يعلمك اللغة والنظام قبل أن يرسلك.. أو ليس لديكم نظام..؟ وتظاهرت أني لم أفهم سؤاله وكان يعرف أني أعرف.. العشرات مثلي قابلهم.. وللأسف وإلى الآن وبعد كل تلك السنوات من تلك الحادثة.. أتساءل هل توجد لدينا أنظمة..؟ أتمنى أن أقول نعم.. لكني ما إن أخرج إلى الشارع حتى أرى القانون قتيلاً.. وما إن أدخل أية دائرة حكومية حتى أرى القانون يستجدي ويُستجدي.. وعندما أفتش حولي لمَ؟ لِمَ؟ لا أجد الجواب.

كم أبدو مملاً عندما أتحول إلى واعظ.

وبعد ثلاثة أشهر من الدراسة الفصلية والنظرية في تلك المدينة الجنوبية (تشارلستون) وزعنا ـ نحن الزملاء ـ على ثلاث سفن حربية للتدريب العملي.. هناك في المحيط المحيط الأطلسي

نواف طار إلى (برتريكو) القريبة من كوبا.. ثواب طار إلى (كي وست) في أقصى خاصرة فلوريدا.. وأنا سافرت إلى مدينة

(نيوبورت) في ولاية (رود آيلاند) الصغيرة في الشمال القريبة من (Massachusetts).. كانت هذه المدن قواعد بحرية كبرى أثناء ذروة الحرب الباردة.. عندما كانت أمريكا تمتلك أكثر من ستمائة سفينة قتالية عدا سفن الدعم والنقل والإسناد.

ومن ميناء (نيو بورت) وقريبا من ميناء نيو بدفورد (New Bedford) أبحرت جنوباً في المحيط الأطلسي كما أبحر ذات يوم (آخاب) بطل رواية (موبي دك) لهرمان ملفيل.. لكني أبحرت لأعود بعد شهر..وليس كآخاب الذي صارع قدره الأقوى والأحمق ولم ينهزم رغم كل جراحاته.

هرمان ملفيل عمل مثلي في البحرية الأمريكية.. وها نحن إذن رفاق.

وكان الإبحار كل هذه الفترة وسط ظروف جوية قاسية تجربة أخرى.. تجربة جسدت لي عظمة وقوة وإصرار هؤلاء الناس الذين ينتمون لكل زوايا الأرض.. والذين فقط بإصرارهم اكتشفوا كم هي الطاقات الكبيرة داخلنا.. وكم هو عظيم ومتفرد هذا الإنسان.

ولكن هل هذه هي كل أمريكا..؟

لا أبداً.. الحضارة الأمريكية شيء مختلف، والحياة في المجتمع الأمريكي شيء أخر.. وهذا ما لمسته في المرة الثانية بعد

أن عدت إليها بعد ستة أعوام.. وهنا وجدت أمريكا أقل بطشاً وقسوة.. وأكثر وهجا وحناناً ولكن ما الذي تغير..؟ ذلك أني جئتها هذه المرة وأنا أحتمي بالوطن.. جئت معي بوفاء زوجتي.. والزوجة الوفية وطن شاسع وطن يقهر عنك جور المسافات ويجعل كل السماوات رحيمة..

زوجٌ من الأحذية!!!

صديقتتنا الأمريكية (جيكسا) أخذت وفاء يوما للغداء والتبضع كانتا لوحديهما.. جيكسا تريد تعلم ثقافة مختلفة وعادات مختلفة وأفقاً مختلفاً عن هذا الجز من العالم، وفاء تريد أن تتعلم اللغة الإنجليزية التي تعرف قليلاً منها.. وتريد أن تعرف أيضاً جزءاً عن الثقافة الأمريكية.

جيكسا تسأل وفاء.. إن كانت تزوجت عمرو عن قصة حب..؟

تجيب وفاء بلغتها المكسرة وبلغة الإشارة وتعابير الوجه..أن لا، إنه زواج مرتب عن طريق العائلة.. وتشير بيدها مراراً للسماء كتأكيد للمقدر والنصيب والتسليم المطلق بالقدر.

تصرخ جيكسا:

What? come again please? You marry umro without knowing him?

We American women well try even a brand new bair of shoes for a while and we,ll get the money back if we didn,t feel comfortable in it..

How about life time husband? Poor lady

تعود وفاء مهمومة ومشوشة.. تقول إن جيكسا تحدثت اليوم

عن الزواج والرجال، ولم تفهم سوى كلمة جزم وأزواج وعلامات دهشة.

ياااااااه يبدو أن تعلم اللغة مشكلة ليست سهلة أبداً.

اتصلت بجيسكا أسألها عن محور حديثها اليوم مع وفاء..؟

وضحكت جيكسا كفرس تصهل في سهوب حرة طليقة، وقالت إنها قالت بما معناه إنها فقط إذا أرادت أن تشتري زوجاً من الأحذية فإنها حتما ستجربه وتمشي به وإذا لم يرق لها حتماً ستعيده وتسترد نقودها.. فكيف بزوج تعبر معه العمر.. تتزوجه دون أن تعرفه أو ربما لم تسمع به من قبل.

لا أعادها الله من معرفة ياجيكسا.. ولا ثقافة..هكذا قلت

وسألتني وفاء عم فحوى الحديث..قلت لها إن رأي جيكسا (وهي حرة) أن من يتزوج دون حب جدير بأن يضرب بالجزم.

ولكن كيف حصلت وفاء على زوج الأحذية.. (أنا) كيف؟؟

بعد تهشم زواجي السريع كنت نذرت نفسي للعمل والقراءة والغياب.. كنت قد اكتشفت ـ وبثمن مؤلم ـ أن مؤسسة الزواج ليست أحلاماً تهبط من السماء.. وليست شخصين يلتقيان ليشربا السعادة المبذولة، لكنه أكبر من ذلك وأعمق.. إنه قيم وعادات والتزامات ومسؤوليات ومحاذير وفوق كل ذلك وعي بقدسية وفضاء الآخر وحلف مقدس بالسير معاً نحو الحياة والموت حتى

خط النهاية دون تلفت للوراء.. ودون كشف حسابات للربح والخسارات.

وقررت أني لن أتزوج.. الناس يتزوجون عندما توقعهم الطبيعة باسم الحب (كما يرى فليسوف التشاؤم سبينوزا) لحفظ النوع ليس إلا.. ولا حكايات حب في حياتنا عدا المسروق منها وفي الجبيل لا نساء ولا أمل في الحب وحتى زواج الحب يتحطم أيضاً..ذلك أننا لا نجد من نحب فنحب من نجد ونمضي العمر كل العمر متخمين بشعور الندم وهاجس التعويض وردم الخسارات ونشقى ونشْقي من نحب.

وأبحرت عاماً أو بعض عام وحيداً في الجبيل إلا من صدقات موزعة.. وانتظار لما لن يأتي.. ومره أخرى تتدخل العائلة.. والدي.. وأختي وأخي الأكبر.. كانا يخافان أن أدمن التوحد والترحال وأن أبتعد عنهما وعن القرية والعائلة.. كانا يخافان أن أوغل في الغياب.

- تزوج يا عمرو. العمر يسرق.. وأنت وحيد.. كل الناس يتزوجون ويفشلون ويعيدون التجربة المجتمع أيضاً يرفضك عندما تكون رجلاً غير متزوج.

والجبيل أيضاً موحشة ومملة.

باختصار.. هزمت.

وقررت إعادة التجربة.. لوحدي.. دون تدخل أو مساعدة من

العائلة حتى يكون الكل بعيداً على الحرجِ في ما لو أنكسر هذا الزواج أيضاً.. كنت أقامر دون وعد كبير بالأمل.

وعن طريق أحد زملاء العمل وعن طريق والدته.. تعرفت على عائلة طيبة من مكة أنا القادم من جازان.

جازان ـ الجبيل ـ مكة مثلث طول كل ضلع من أضلاعه ألفا كيلو متر واختلافات كبرى في كل شيء.

وكررت التجربة.

لكن وفاء وبوعيها الحضاري وعائلتها (وللعائلة دور كبير في النصر والهزيمة) كانت أيضاً مصرة على هزيمة اختلاف المسافات والعادات والثقافة.. كانت مصرة على إبقاء هذا المركب طافياً ومبحراً رغم كل شيء.

وأبحرنا معاً.

والحب بعد الزواج نوع آخر من الحب والحب أنواع ومذاهب.. الحب بعد الزواج ليس ذلك العشق المتطلب ولا الهوى الصاعد ولا الخيول الجامحة في سهوب الخيال.. حب هادئ ورصين ينمو صامتاً ويسري كسريان الماء في الشجر وكالعافية في روح السقيم.. يكبر ولا يصغر يبني ويصان ويتجذر.

ولم أكن أبدا زوجاً مريحاً من الأحذية ولا زوجاً طيباً.. لكني

أيضاً أصبحت أدرك على الأقل أني غير مريح وكنت مصراً على النجاح.. لأن البديل هو الفشل وسؤ الصيت

كنت قروياً فضاً أمتلك تصورات مسبقة وربما مغلوطة عن الدور الأسمى للزوجة وفقيراً لعبارات المجاملات معدماً من أنجيل التسامح وعنيداً كصخرة وربما طيباً ولكن بحماقات صغيرة ومتكررة تهزم كل تبصر.

وكانت وفاء ابنة مكة ذات الثقافات المتعددة والتنوع الغني والرقة الحجازية العابقة.. كنا نقيضين.

لكنها وبصبر الشهداء عبرت معي الرحلة.. رافضة الهزيمة كانت تؤمن أن من جذع هذه الشجرة القاسية (أنا) ربما تصنع مزماراً للغناء.

لم تفرض رأياً أبداً، لم تطلب شيئاً مباشرة فقط كانت توحي إليّ بما تريد بروية وتبصر لا يتبدل وتتجاوز حماقاتي الصغيرة والكثيرة بتسامح وعطاء لا ينفذ..وربما رأت في شيئاً يستحق الرهان.. لا أعرف.. لكنني أعرف أننا ومنذ خمسة وعشرين عاماً ونحن نتقاسم الرؤى والأحلام والمسرات وحتى الألم ونمضي بيدين متشابكتين إلى الأمام.

لم نعد زوجين فقط.. غدونا صديقين.

وإذا كان هناك من معجزة فهي من صنعها هي.. أنا كنت وما

زلت فقيراً من المعجزات، ورغم أننا لم نحظ بأطفال فإننا لم ننظر لذلك أبداً كمعضلة تسمم حياتنا، بقدر ما كان هدية من السماء.. فقد بقينا خفافاً من القيود ومن قلق الخوف على فقدان ما نملك ومبذولين لبعضا وأكثر.

سافرنا معاً شرقاً وغرباً وتقاسمنا شجن الاغتراب ولحظات السعادة وتجولنا في شواطئ وغابات على مساحة الكون وصنعنا صداقات باتساع الدنيا ونزلنا بلاداً سحرية بامتداد الفضاء ومازال المركب يمضي.

ولو وجدنا جيسكا ذات يوم ربما بدلت رأيها في ثقافة الأحذية.. وربما قالت بلا تردد أنه الشرق الشرق بلاد الأساطير والمعجزات.

لكننا معاً صنعنا المعجزة، معجزة الحب الذي لا يعرف الذبول.

مسجدٌ مؤقت

في كل عام يهل رمضان.. شهراً فريداً يغير خطى الحياة ورتابة الزمن ويزرع حدائق من الفرح في حياة الناس وتهطل الرحمات والبركات وتصفو النفوس.. ويأتي بعده العيد كختام للفرح للكبير المتجدد كل عام.

ما إن يُرى الهلال حتى تتغير علاقة المكان بالزمان والأنسان بمن حوله ويولد فضاء آخر.. فضاء رمضان الجميل.

وفي رمضان أفتح أرشيف الذكرى.. ذكرى سنوات الحياة.

وأتذكر رمضانات كثيرة.. في القمري.. في سنوات الغربة.. في أيام الطفولة وفي بقاع كثيرة من العالم.

ولكلٍ منها شجنه وفرحه ووجوهه وذكرياته.

لكن أجمل ما أتذكر أنه وعندما كنا صغاراً.. كنا نترقب الشهر الكريم على طريقتنا التي لم تعد تتكرر الآن طريقة الأطفال الذين كانوا أطفالاً ولن يعودوا.

كنا أول ما نبدأ به بناء مسجد صغير بجانب مسجدنا البسيط

قبل دخول الشهر.. كنا نجمع الأحجار ونرصفها حجراً حجراً على هيئة مستطيلة ثم نضع له محراباً صغيراً باتجاه القبلة.. ولا يهم إن انحرف المحراب قليلاً ونعتبر ذلك هو مسجدنا ولشهر واحد فقط شهر رمضان.

كان طعام الإفطار التقليدي في ذلك العهد لبن الزبادي المنزلي وخبز الذرة والتمر وماء الشَربَة المبخرة بالهيل والمستكى.

وكانت أمي تعد لأبي إفطاره وتعد لنا أنا وإخوي (حسين الأكبر وعلي الأصغر) إفطارنا ولنا أيضا شربتنا الصغيرة وكنا نحمله إلى مسجدنا الصغير بجانب الكبار ومثلنا كان يأتي أولاد جيراننا.. وكنا جميعاً ننتظر الأذان.. وكالكبار نفعل ولم نكن غالباً من الصائمين.

ونفطر ونصلي مثلهم.. ونرقب منظر الهلال الناشئ بغبطة هلالاً يبدو جميلاً ولا كالأهلة هلال رمضان يبدو دائماً هلالاً مختلف ونعود نصلي العشاء والتراويح.. ويبدأ ليل رمضان الجميل.

ولم يكن هناك تلفزيونات تفسد التواصل.. ولا فوازير ولا مسلسلات.. كانت هناك برامج الإذاعة ومسلسلة أم حديجان على أكثر تقدير.

وكان هناك الحب والصفاء والصدق مع الله والذات والناس.

كان ليل رمضان ليلاً من الغبطة والتواصل والنور المندلق من

السماء إلى الأرض.. كنا نشعر بالتقاء السماء مع الأرض.. باتصال الناس مع الله.. كان رمضان فيضاً من النور والحبور والغفران.

ولم نكن نسهر كثيراً وكنا ننام قبل السحور في ذلك الزمن.. كنا ننام وتوقظنا أمي للسحور.. والذي عادة ما يكون (ثريداً) وهو خليط من الحليب والخبز.. وكنا نأكل بين النوم واليقظة دون أن نشعر وأحياناً ننكر في الصباح أنا أكلنا ونحتج لِمَ لَم توقظينا يا أمي للسحور؟.

وعندما يهل العيد يكون الفرح طاغيا يليق بعيد.. وكنا نحن الأطفال أكثر من يبتهج رغم الشح وضيق ذات اليد.

وكبرنا وتفرقت بنا الحياة وأخذت بنا كل مأخذ.. ورحلت أمي.. وتزوج أبي ثم أخي.. وكبرت أنا.. وتغير العالم.. ثم رحلت إلى مسافات أخرى من العالم وعشت رمضانات كثيرة..جلها مليء بالشجن.. شجن البعاد.

وكنت أفتش عن سهيل، ذلك النجم الصيفي الجنوبي الذي كان يرتقي الأفق في رمضان.. ونعرف به موعد السحور دون ساعات أو أذان.. ولكن سهيل نجم جنوبي لا يرى إلا هناك.

ولم أكن أراه في أصقاع فرنسا أو سهوب أمريكا.. أو غابات بنقلادش كانت هناك ملايين من النجوم.. لكنها لم تكن أبداً كسهيل

الذي أراه في الركن الجنوبي من السماء.. حيث لا نور إلا أنوار الفوانيس الخجولة وحيث النجوم تضيء كالنجوم..في سماء قريبة.

وسكنت جدة.. وكان لرمضان في جدة طعم آخر.. لجدة سحرها.. أسواقها وساحاتها وليلها الذي لا شبيه له..ليل غامض ومزيج من كل شيء ولا يشبهه أبدً أي ليل.

ومن جدة نمضي إلى مكة.. إلى رحاب الحرم.. حيث الساحات المترعة بالقادمين من كل الدنيا.. وحيث أسواقها ومطاعم الكبدة والبليلة.. وفرح الناس الغامر وصوت البهجة المشرعه.

غير أن كل رمضان يأتي ليأخذ معه سنة من العمر وجزءً من البهجة ويرحل أحبة وتتبدل أماكن وغدت الأعياد تأتي بفرح أقل وشجن أكبر ويتغير العالم. ويتسع.

وتنحسر شيئاً فشيئاً مساحات الألفة والتواصل والوداد وتغص الحياة بالضؤ والصوت والفضائيات الكثيرة وما عدنا نفتش في السماء عن الهلال الصاعد صدر الأفق ولا سهيل الناهد من الركن الجنِوبي للسماء لكن الحياة تمضي وسنظل ننتظر رمضان كل عام وسنظل نتذكر.

الرسائل لا تذهب عبر البريد

لم تحلُ الجبيل لابنة الحجاز.. ولم يستهوِ وفاء همس الموج ولا وشوشة سعف النخيل وهي القادمة من شقة تطل على الحرم وتضجُ بالحياة ليل نهار.

كانت القاعدة البحرية بالنسبة لها بعد كل ذلك الصخب مملة كمقبرة..

لكنها (وفاء) أخفت عني سر الفقد والحنين إلى المكان.. وإن كانت لم تستطع أن تخفي عني مسارب الدموع التي كانت تتعمق كل ليلة وكنت أدرك.

وقررت أن ننتقل لجدة.. وهناك أيضاً قاعدة وأسطول وسفن كما في الجبيل .وقد كان.

وأخيراً إلى جدة.. وكثيراً ما كنت أسمع عنها في المجالس وعبر الذاهبين إليها والعائدين منها بعد أن غدت موطن هجرة وبعد أن شح الرزق وضاق الحال في القرى وهاجر من هاجر نحو

الشمال.. إلى الحجاز ونجد..إلى جدة ومكة والرياض، آخرون ذهبوا بعيداً إلى تبوك وهناك من وصل ذات فاقة إلى الكويت.

وما أقسى الأرض عندما تقسو على أبنائها.. ويغدو الرحيل هو الترياق رغم قسوة الرحيل وهل الجنوب إلا رحيل منذ البدء..؟ منذ سيل العرم إلى سيل النفط.

لم أكن أحمل لجدة أي تصور كنت صغيراً وفقيراً من الخيال لكنني كنت أعرف أن مبانيها أكبر من عششنا، وأن بناتها أرق وأجمل من بناتنا، وفيها سيارات كثيرة وأن الصغار مثلي يضيعون فيها عندما يكونون لوحدهم.. وكنت أسأل الذين يرجعون منها: كيف هي جدة..؟ ليعجزهم وصفها فيرددون كلمة واحدة.. جدة جدة إنها جدةٌ!!

وفتح الله عليّ فك الحرف.. لأكتب المكاتيب إلى الذين ذهبوا.. ذهبوا هناك واستوطنوا إما تحايلاً على شظف العيش وقهراً للفاقة أو لأن العيش راق لهم وطاب بهم المقام.. كنت أكتب مكاتيب لا تذهب بالبريد، لأنه لا بريد يسافر من القرى.. ولا تسافر بالطائرات لأن الطائرات حلم أبعد من البعيد ولكنها مكاتيب تذهب مع مسافرين جدد.. يغادرون مخضلين بالدموع مساء كل اثنين إلى ثلوث صبياء ومنها تتوزعهم الجهات.. نجد والحجاز وما هو أبعد.. وما هو أشد قسوة.

وكنت أحاول بلغتي المتعثرة وبحروفي البسيطة وعلى أضواء الفوانيس الشحيحة ووسط الفراشات والجداجد، أن أعلب تنهدات الزوجات وأشواق الأمهات والآباء قدر ما أستطيع.. كنت اقرأ اللهفة والدموع والحاجة في أعينهم وأكتب كما يملون عليّ:

(هااااااه وقله خديجة هبن صبى وسميناه معبر وهو بخير.. وما إحنا معليينّه حتى يروح.. قله هكذا.. طيب..؟هيا أقرى عليه ما هو كتبت يا أبني).. أو (يا بوك قله الحال يعلم به الله.. ومعاد معانا إلا أمزهب.. يشانا نبيعه بعناه..؟ أخيييييه.. بو الريب.. ياسين عليه... يكبنا هاكا؟ ما يرسل لو بخمسين ريال)..

أو (قله أن أمخمسين أم ريال اللي وصى بها مع عبده حنين وصلن.. وأرسلنا له بقارورة سمن.. قله وصُلنه..؟ وقله يترجل ويلزم زلطه شنخطب له بت حسين أم مهدي).

وكنت أكتب وأمحو وأعيد ما يقولون أقرأ وأضيف وأتخيل هؤلاء الذين يعيشون في جدة هذه المدينة الواقعة على حدود الأسطورة.

وكان العائدون منها يخدعون خيالنا.. أو خيالي أنا الصغير، يعودون بثياب نظيفة ووجوه ندية وكلمات حجازية مكتسبة.. وبعضهم يعود وقد اكتسب عادات جديدة.. عادات أبناء المدن،

وآخرون يعودون بأجهزة تسجيل تظل تصرخ بأغان شعبية تضج بالأشواق ورسل الفراق طوال الليل وجزء من النهار.

وكانوا بذلك التغير يضيفون إلى أشواقي أشواقاً أكبر.. وهم يتحدثون عن العمارية والكندرة.. عن الرويس والخاسكية وعن كيلو ثلاثة وباب شريف وشركات بن لادن والجفالي وسينما حدائق كيلو عشرة.. وعن وعن وعن.. وعندما كبرت وجئت إلى جدة اكتشفت أن أكثرهم ترك أغنامه في المراح وزرعه في المساقي ليشقى هنا طوال النهار وأن أكثرهم عاد بعد ثلاثين عاماً دون مكتسبات سوى الفقد.. وأن الحياة أحياناً ليست بذلك الوعد ولأنها أحياناً مصير لا أكثر.

لكن لقائي بجدة تأخر سنوات وسنوات وسنوات.

سافرت إلى مكة والرياض.. ولكني لم أذهب إلى جدة.. وبقيت أشاهدها في الصور.. وعبر المكاتيب والخيال وأخيراً عبر التلفزيون.

وذات مساء ربيعي (مازلت أتذكره) عبرت مطارها.. الذي أصبح الآن وسط جدة.. عبرته مسافراً من القمري إلى باكستان.. سافرت إلى جدة ثم الرياض والظهران وأبو ظبي ثم كراتشي هل تذكرون؟.

ولم أرَ من جدة في ذلك المساء إلا المطار وقهوة في الطرف الشرقي من المدينة.. وكنت مثقلاً بالحزن والمجهول وحسابات مقبل الأيام.

وبقي تواصلي مع جدة عبر المطار فقط أو عبر الرفاق الذين أزورهم إذا ما عبرتها أو قصدت مكة للزيارة. لكن الحال تغير بعد أن انتقلت إليها واستوطنتها كأبنائها.

ولم تعد جدة بعد ربع قرن ممراً للعبور أو محطة للسفر.. أصبحت جدة هي الوطن والأرض والمكان.. غدت المقر والمآل.

أبداً ما كنت أظن أني أبادل القمري بأي أرض.. لكني تشربت هوى جدة كحب يعصف بنا آخر العمر ويحيلنا شتاتاً.

ومهما غربت أو شرقت فإن أجمل أوقاتي هي تلك الساعة التي أحلق في أجوائها عائداً من أي مكان.. وأرى أضواءها من السماء كسماء أخرى.. سماء لا شبيه لها لكنها في الأرض وليس في مجرات نائية.. وغدت جدة بوابتي إلى الوطن.. غدت الوطن.

وعندما أعبر عبر أحيائها القديمة.. عندما أعبر باب مكة وباب شريف وأسواق الصحيفة والبلد أتذكر كل الذين مروا من هنا.. أتذكر وجوهاً كثيرة.. كثيرة حد التعب، وجوهاً مرت ذات سنوات

من هنا.. هنا شقيت.. وهنا تعبت وهنا صنعت أحلاماً من دموع وعرق لن يسترد وهنا نقدت الحياة مهراً هو العمر.

ورغم أن جدة كبرت وكبرت وكبرت إلا أن تلك الحواري والأحياء الضيقة القديمة.. بقيت تحمل لي رائحة جدة.. التي كنت أحلم بها على أضواء الفوانيس وأحترق شوقاً إليها كما كانت تحترق الفراشات على أضواء فوانيس ذلك الزمن.

بحارٌ لا تروي العطش

ما الذي يتبادر إلى الذهن عندما تذكر كلمة فرنسا؟ النساء يتبادر إلى أذهانهن العطور والأزياء وخطوط الموضة ويقفز إلى ذاكرة الرجال الجمال الفرنسي والحب الفرنسي، وربما يتذكر آخرون نابليون وفكتور هيجو وبرج إيفل والثورة الفرنسية، والبعض ستقفز إلى ذاكرته الجبنة والنبيذ الفرنسي والمطبخ الفرنسي.. ولكن ما الذي يتبادر إلى ذهني أنا عندما أتذكر فرنسا؟.

لن أقول لكم لا لن أقول لأن فرنسا كلها تحضر إلى ذاكرتي، ولأني لا أتصور العالم دون فرنسا لأني لا أتصور العالم دون امرأة فرنسا هي الأنثى الأجمل في العالم وهل يتصور أحد المرأة دون عطرها ومشد خصرها ورافعة صدرها؟ أنا لا أتصور المرأة دون قلم الروج وقارورة العطر ولثغة الراء المحببة ولا أتصور العالم دون شعراء فرنسا ورسامي فرنسا وعلماء فرنسا والثورة الفرنسية التي أهدت العالم شعلة الحرية والنشيد الأممي في كل مكان.

فرنسا هي بلاد النور والمعرفة بلاد الحب الجمال بلاد الحرية.

لكني لم أجئ إلى فرنسا أول مره باحثاً عن الجمال ولا المعرفة ولا الدهشة وإن كنت ظفرت بشيء منها بل جئت فرنسا لأمتطي بارجة بحرية حديثة أعود بها مع رفاق آخرين إلى الوطن.

دخلنا فرنسا عبر عاصمتها باريس مدينة النور ومعي وفاء وزميلان آخران بعائلتيهما وكنت أنا الدليل.

ونزلنا فندق الكونكورد لافايت في الدائرة الخامسة قريبا من قوس النصر وضعنا أمتعتنا على عجل وانطلقنا نكتشف باريس التي طالما قرأنا وسمعنا عنها وحلمنا بها ميدان الشانزليزية قوس النصر برج إيفل ساحة الكونكورد نهر السين والحي اللاتيني كنيسة نوتردام العريقة وحتى حي مونبرناس كنت أفتش عن تلك المرابع التي قرأتها عنها في روايا كتاب فرنسا وأبحرنا في نهر السين وعبرنا قريبا من متحف اللوفر ورأينا للمرة الأولى العشاق وهم يقبلون بعضهم في الشوارع والساحات دون أن يلتفت لهم أحد أو يثيروا غيرة أحد عدى غيرتي أنا.

كانت باريس ومازالت أجمل من أن توصف فقط باريس جميلة!

وكيف أكتب عن مقهى الفوكيت حيث كان سارتر يحتسي قهوته بانتظار صديقته ساغان؟ وكيف أكتب دون أن أختزل بإفراط

لوحات فناني الشوارع ومعارض الكتب وموسيقى الجوّالين والسلام والهدوء والتآلف الذي يجلل المكان؟

كيف أصف حدائق قصر فرساي وبحيراتها وعظمة ملوك فرنسا وروعة ما خلفوه من إرث حضاري للبشرية؟

وكيف أتحدث عن ساحة الكونكورد والحمام الذي لا يخاف ويحط على الكتفين.

باريس كالحب يعاش ولا يوصف كالقبلة ترتشف ولا تكتب كالجميلة ننتقصها إن عددنا مفاتنها في حين يكفي أن نقول فقط إنها جميلة.

مكثنا بها ثلاثة أيام كغمضة طرف كنا نتجول دون دليل عدا الرغبة في خوض التجربة واستجلاء المكان والرغبة في الضياع في قفار الجمال.

وغادرنا للجنوب للشاطئ اللازوردي إلى مدينة طولون حيث تقع إحدى أكبر قواعد فرنسا البحرية والتي منها خرجت الأساطيل التي استعمرت نصف العالم ذات يوم قاعدة (الأرسنال)، وحيث أمضينا ستة أشهر ربما هي الأجمل في العمر.

كانت طولون المدينة الكبيرة، لكننا أقمنا في إحدى ضواحيها الصغيرة الجميلة، مدينة (لاكلدولير) حيث تصلنا وشوشة موج البحر الأبيض وغناء النوارس العائدة من طيران الجنوب بعد رحيل

الشتاء وكانت شقة السكن صغيرة لكنها كافية حيث الحياة سهلة ودون حواجز أو قيود.

ومنها كنا ننطلق شمالاً كلما وجدنا متسعاً من الوقت ننطلق إلى (سانت تريز) (سانت مكسيم) (سانت رفائيل) ثم مدينة (كان) و(أنتيب) و(نيس) و(موناكو) حتى نعبر حدود إيطاليا ونغذ جنوباً إلى مرسليا المدينة الشمال أفريقية بعرب شمال أفريقيا وبلغتهم الهجينة من الفرنسية والعربية والمسماة (العرنسية) مرسليا مدينة ليس فيها من فرنسا غير بقايا المجد وهيبة التاريخ ونسيم المتوسط والمقيمون بها أجناس من كل شتات أفريقيا وتشلها الإضرابات والجريمة واللغة الثانية بها هي اللغة الفرنسية وهل كان بودلير يدرك ذلك؟

ونمضي جنوباً إلى عشرات القرى والمدن الصغيرة وبقايا القلاع وبمحاذة المتوسط حتى نصل برشلونة المدينة الأندلسية الفاتنة الراقصة على إيقاعات الفلمنكو وشذا أشجار البرتقال.

وربما إتجهنا نحو جبال البرانس المكللة بالثلوج والطرقات الضيقة..وكنت آتسآل ترى في اي المنافذ توقف عبدالرحمن الغافقي.

لتلك الجبال وتلك الشواطيء المشمسة جمال لا يوصف قرى

صغيرة تخاصر البحر وبعضها يتوسد التلال والخضر مدن مباحة للصيادين والعشاق ونوارس البحر وللمطر.

وإذا ما عبرنا إلى الداخل نحو الأرياف فالفتنة أشد من الوصف والقرى أجمل من الصبايا الفاتنات، إقليم (البروفانس) الشهير ملهم الشعراء والفنانين والكتاب وحوض الرون الذي يمضي بمحاذة نهر الرون.

هنا الطبيعة لوحة أبدعها الخالق وقدر قيمتها الإنسان ومنها تعلم وأبدع وأعاد خلق جمالها عبر إبداعاته الخالدة شعراً ورسماً وروايات خالدة خلود جمال البروفانس وأنهارها المتحدرة من جبال الألب الجنوبية.

وهنا أيضاً مزارع العنب الأشهى كشفاه الغيد وفي كل مزرعة معاصر للنبيذ وفي نهايات الصيف يستوي الجنى ويحين القطاف وتدور المعاصر وتمتلىء الخوابي وتغدوا الفراشات سكرى في الهواء وتعيد العصافير تعلم أبجديات الغناء وحتى الغيم يثمل.

وهنا معامل العطور ومصانع الصابون والزهور المجففة ومعاصر الزيتون والمعلبات القروية والخبر الفرنسي الأشهى في العالم وكل ما في فرنسا شهي ومحرض على الحياة.

الفرنسيون جاؤوا هذه الدنيا ليعيشوا بهجة الحياة أولم أقل لكم أن فرنسا هي الأنثى الأجمل في فضاء العالم؟

كنا نتدرب معاً ونحاول في ستة أشهر استيعاب أحدث ما أنتجت المصانع من تقنيات السلاح والاتصالات وفنون البحار، وكنا نريد أيضاً أن نجرب متع فرنسا المباح منها وحتى غير المباح.

وعندما كنا نبحر بمحاذاة الساحل عندما كنا نبحر في المتوسط كنا نحاذي جزراً وخلجاناً صغيرة مسكونة بالحياة والناس الهاربين من صقيع شمال أوربا وكنا نحدق بمناظيرنا المقربة ونرى المتنزهين والمتنزهات على شواطئ الشمس كنا نفتش عن المِتنزهات من النساء ونحدق فيهن خِلسةً وهن يسبَحن أو يستلقين على الشاطئ كمخلوقات من الشمع الأبيض بكامل غوايتهن، وكنا نتبادل المناظير المقربة ونحدق في اللامباح وليغفر لنا الله وكنا نتعلم الإبحار ولكن عبر خيالات لا تكتب.

وأحياناً تعبر قريباً منا يخوت غنية بحوريات البحر من بنات حواء المبذولات للشمس والهواء والزرقة البكر، يخوت ومراكب وزوارق أغنياء العالم وأثريائنا، مراكب ترسو هنا وهنا تتنزه وتبحر وتهرب من جوع ووحشة وفقر بحارنا المنسية إلا من الملح العطش والحصار وتهرب من وصاية الإنسان.

لكن اللغة ظلت معضلة واللغة تفتق المغاليق وتخرج بك من المطاعم والفنادق والشوارع العامة إلى مكنونات المكان، اللغة هي من يدخلك البيوت العتيقة والشوارع الخلفية الصغيرة ومن يدخلك

قلوب الناس قبل بيوتها وكانت اللغة الفرنسية العذبة معضلة حتى إن كانت غنية بلثغة الراء الشقية.

ولا يمكن أبداً أن تعرف بلداً مهما أقمت فيها إذا لم تقرأ جرائدها اليومية وتشاهد قنواتها التلفزيونية وتستمع لإذاعات **FM** وتدعو الناس إلى منزلك وتذهب إلى منازلهم، وعدا ذلك فستصدر عليهم أحكاماً ضبابية وتعيد مقولات متداولة لا تمت أبداً إلى الحقيقة.

حاولت أن أتفهم الحياة الفرنسية عن طريق صديقي تشارلز (الضابط الفرنسي) الذي كان يدربني بلغتنا الإنجليزية المشتركة وشارلز نصفه فرنسي والنصف الآخر ألماني ويقول إن أجداده كانوا يقطنون (منطقة الألزاس) التي كانت مقاطعة ألمانية قبل الحرب العالمية الثانية ثم غدت فرنسية وله هناك منزل ريفي ومزرعة وشجرتي كرز وتقيم والدته المتقدمة في السن.

وقال يجب أن تزورني هناك لنجمع الكرز وثمار البطاطا معاً ونصطاد الإوز البري وأن تزورني أيضاً في مدينة برست في إقليم (البرتاني) في الشمال الغربي، حيث أقيم وفرنسسكا زوجتي ووعدته وفعلت ولكن هذا الوعد تأخر سبعة أعوام.

ظل العمل والتدريب والمسؤلية يأخذ الجزء الأعظم من الوقت حتى أزف وقت العودة بسفينتنا وذكرياتنا.

وغادرت عائلاتنا إلى جدة بالطائرة ونحن مضينا عبر المتوسط قريباً من جزيرة سردينيا الإيطالية وكريت اليونانية ثم خاصرنا الساحل العربي حتى دخلنا قناة السويس لكن هذه المهمة لم تكن الأخيرة لفرنسا وعدنا لطولون وبنفس الدرب وعبر نفس الطريق ولكن لمهمة أخرى في زمن آخر وفي عالم الثابت فيه هي سنة التغير نفسها.

قريباً من الموت

كنت قد أجريت عملية (اللحمية).. وحصلت على عشرين يوماً كإجازة مرضية وكنت في بيتي في جدة صباح الثاني من أغسطس في عام ١٩٩٠ م وفي صبيحة اليوم الخامس من تلك الإجازة.. اتصل بي صديقي الأمريكي توني الساعة التاسعة صباحاً.

كنت أظنه يريد الاطمئنان عليّ بعد إجراء العملية.. لكنه دخل مباشرة في الحديث

- عمر.. هل تعرف لقد دخل صدام الكويت؟

- أنت تمزح؟

- لا..

- إذاً احتل حقل الرميلة وتلك المناطق المتنازع عليها؟

- لا.. لقد احتل كل الكويت....

- ....

ولم أجد ما أقول سوى الذهول والصمت.

بالطبع لم تكن هناك CNN ولا فضائيات اليوم، وهرعت إلى التلفزيون السعودي.. وكان يعرض برنامج البيت السعيد.

اتصلت بصديق في العمل

ـ عبد الوهاب.. ايش الأخبار؟؟

ـ والله مرابطين كلنا بس ما نعرف ليش

ولم أعلق..

لكن عبد الوهاب عاد واتصل بي بعد قليل وقال: (نعرف أنك في إجازة.. ولكن كن مستعداً للالتحاق بالسفينة).. هناك أخبار غير سارة

وقلت له أعرف.

كنا جميعاً نتابع تلك الأيام الخلاف بين العراق والكويت حول حقول حدودية وحول مشكلة الديون العراقية.. ولكننا نحن الذين تغنينا بأمجاد صدام وقادسية صدام وحارس البوابة الشرقية للأمة وكان قد هدد أيضاً بأنه سوف يحرق (نصف إسرائيل) ولا أعرف حتى الآن لماذا النصف فقط..؟ كنا جميعاً نرى في أبي عدي بطلاً عربياً.. وكنا سعداء أكثر ونحن نسمع أن بطلاً عربياً وسيما سيحرق على الأقل نصف إسرائيل.

كان العالم كله يعرف أن صدام طاغية لا أكثر وأنه قد وصل إلى الحكم على جسر من الجماجم لكنه كان يحقق لهذا العالم

أهدافه وهذا هو المهم.. أما نحن في الشرق فإننا نمجد الطاغية والطغيان ونتغنى به وكل تاريخ الشرق هكذا ونمجد من يلعن أمريكا في العلن حتى وإن مارس معها الحب في السر لا يهم ولم نكلف أنفسنا أبداً طرح الأسئلة وتريحنا الأجوبة الجاهزة والنهائية ويريحنا أكثر يقين الظلال.

تسارعت الأحداث وقطعت إجازتي ولبست البدلة والتحقت بالعمل وبدأنا إبحاراً متواصلاً إبحاراً مشحوناً بكل هواجس التوقعات والخوف والقلق من المجهول.

لم نكن نعرف ما هو الأسوأ كنا نلتقط كل إذاعات العالم لعلّ فيها يقيناً ما ونفذت أجهزة الراديو من الأسواق، ورأينا أنواعاً لم نكن نعرفها من قبل ونلتقط ترددات لم نكن ندري إنها في هذا الأثير لأننا ببساطة لم نكن نصدق إعلامنا.

ولم نكن نخاف الحرب ولا حتى الموت لكنا لم نكن مستعدين لكليهما الحرب والموت وكنا نحس أن الأمر جاء على غرة وأن لدينا في الحياة أشياء يجب أن نفعلها قبل أن نموت. لأننا ما إن اقتربنا من حافة الموت حتى بدت لنا منازلنا وعائلاتنا جميلة وغالية بشكل لم نكن نتصور وتبين لنا جمال ما نمتلك وكنا نعاهد أنفسنا إن عدنا أن نولي هذه الأشياء الحميمة عناية أكبر وأن نتأملها عن قرب ونقول لها ما بخلنا به كل السنين.

وتسارعت الحشود في المنطقة لتحرير الكويت وتتالت قرارات الأمم المتحدة وأعطي صدام مهلة ستة أشهر للانسحاب من الكويت هذه الأشهر الستة هي الفترة التي كانت تحتاجها قوات التحالف لحشد نصف مليون جندي بكامل تجهيزاتهم من زوايا العالم الأربعة ولم تُعط لصدام لكي يفكر كان عقلاء العالم يعرفون أنه قد اتخذ قراره وانتهى.

وبدأت الحشود والجيوش تترى جيوش في البر وأساطيل في البحر وأقمار اصطناعية تحدق من الفضاء ووفوداً دبلوماسية تتوالى وقلق وخوف، وانقسم العرب إلى قسمين بل ثلاثة أقسام قسم مع صدام وقسم ضده وقسم بين بين ينتظر الفائز ليقتسم معه الغنيمة.

ولم يقف معنا نحن دول الخليج من العرب سوى المغرب ومصر فقط حتى تلك التي تعاطفت معنا تعاطفت انطلاقاً من مبدأ الربح والخسارة أو العداء للعراق لكن وقوف مصر والمغرب كان كافياً لترجيح الكفة.

والتحقت في هذه الأثناء بدورة تدريبية في الجبيل وقريباً من الأحداث أما وفاء فقد التحقت بأهلها في مكة كمعظم العائلات التي انشطرت وكان الكل ينتظر الخامس عشر من يناير وهل ستصدق قوات التحالف وتهاجم العراق وتحرر الكويت ولم يكن هناك أي يقين.

نحن العسكريين لم نكن متأكدين أبداً مما قد يحدث ربما هذه

أول سابقة دولية بعد تحرير كوريا الجنوبية في عام ١٩٥٦ م، لتحرير دولة أخرى السياسيون وحدهم ربما هم من يعرف الإجابة وربما ليس كل السياسيين أيضاً.

وكنت أتجول في المنطقة قبيل الحرب وكنت مذهولاً مما أرى من حشود بشرية ومن عتاد ومستشفيات ميدانية كان توقع الخسائر كبيراً وكنت أدرك أن هذه الجيوش لن تعود ولن تبقى وقد جآت دون أن تفعل شيئاً.

وكان العالم يأمل أن يفعلها (أبو عدي) وينسحب من الكويت في اللحظة الأخيرة ويضع كل هذه الحشود في حرج، لكن أبا عدي الذي أعلن أن الفرع قد عاد للأصل كان يرفض مدفوعاً بهتاف الجماهير التي خرجت في شوارع اليمن والسودان وتونس والأردن ناهيك عن فلسطين جماهير تهتف باسمه وتحرق أعلام أمريكا وإسرائيل وتندد بالإمبريالية وكأن البلد المحتل ليس بلداً عربياً.

وحتى الآن ما زلت أتساءل: هل الأمة العربية أمة واحدة وإلى متى نصدق هذه الكذبة الكبرى؟

إذاً كيف قبلت هذه الأمة بابتلاع دولة لدولة أخرى حتى وإن كان الطريق يقود إلى فلسطين؟ وكل طرق الساسة تشير إلى تحرير فلسطين، لكنها أخيرا تسير عبر مسارات أخرى مسارات لا تقترب أبداً من فلسطين.

وفي ليلة الرابع عشر من يناير ملأت سيارتي بالبنزين وتفقدتها جيداً لا أدري لماذا؟ لكنه كان عملاً صائباً أدركت حكمته فيما بعد، ووضعت فيها كرتوناً من المياه الصحية وعلبة شابورة، ونمت على قلق. وقبيل الفجر أفقت على صوت أحد الزملاء، وهو يهرول خارج المبنى، وسألت:

ـ ما الخبر يا أبو سعود؟

ـ لقد بدأ ضرب العراق، لقد بدأت الحرب ألبس وألحق.

ونهضت وصنعت لنفسي في ذلك الفجر الشتائي البارد كوباً من الشاي، وأخرجت كيس الشابورة وأكلت بشهية كبيرة ثم لبست بدلة الميدان وخرجت إلى حيث كان قد أبلغُ لنا أن نتجمع.

وأذن لصلاة الفجر وقرأ بنا الإمام سورة الأنفال ثم دعا دعاء القنوت ولم يبقِ غضباً إلا واستنزله على صدام وأعوانه البعثيين الملحدين وأعداء الأمة ونحن نردد خلفه آمين آمين.

وما أسرع التحولات في المبادئ فالبعثي الملحد هذا الصباح هو صاحب القادسية الثانية قبل أشهر وحارس البوابة الشرقية من المجوس.

وانطلقنا إلى حيث يجب أن نكون.

وفي مثل هذه الأحداث تَوقف الدورات العسكرية ويعود الجنود إلى وحداتهم القتالية، وهذا يعني أن أعود إلى جدة ولأن

المطارات مقفلة ولأن سيارتي كانت جاهزة بما في ذلك كرتون الماء النقي وبقية الشابورة، فقد انطلقت عابراً هذه الجزيرة غرباً ولم أكن وحدي كان الكل يمضي غرباً وبعيداً عن مدى صواريخ الأسكود العراقية التي بدأت تتساقط على المنطقة الشرقية ثم وصلت الرياض ووصل الخوف والهلع كل مكان.

وكانت محطات البنزين لا تكاد تفي أرتال السيارات المغادرة والمطاعم تقفر من كل ما يؤكل وكان الغبار واللايقين يملأ الجو وكانت الشابورة كل الغذاء حتى وصلت جدة قبيل منتصف الليل.

وفي الصباح أخذتني طائرة عمودية إلى سفينتي التي كانت تبحر عميقاً في الماء وكانت الأصابع على الزناد.

وانتهت الحرب كما نعرف وبالنتائج التي نعرف ولكن.. هل تغير شيء..؟

ومرة أخرى بعد أربعة عشر عاماً كنت أعد لنفسي كوباً من الشاي وشابورة من نخالة القمح وكنت أرى ما يسمى (بقوات التحالف) تقصف بغداد وكأننا لم نتعلم سطراً واحداً في دفتر التاريخ ما تغير هنا هو أن القصف كان حياً على كل فضائيات العالم والبلد المحرر من رئيسه هو العراق والعرب هم العرب أمة تحيا على هامش التاريخ.

حفرةٌ كبيرة

يقول جون أشتيانبك في رائعته (شارع السردين المعلب) عن مدينة مونتري أنها (جماع ما التقى وما تفرق من الصفيح والحديد والصدأ ومن الأرصفة المتشققة وقطع الأرض المعشوشبة وأكوام النفايات والحانات الرخيصة وبيوت البغاء والفنادق الحقيرة) ويقول عن سكانها هم (بغايا وقوادون ومقامرون وأبناء كلاب).

غير أني وجدتها أنا ووفاء عندما وصلناها بعد خمسين عاماً من ذلك الوصف غير ذلك.. وجدنها إحدى أجمل مدن ولاية كلفورنيا.. ولاية الشمس والذهب والرمال الدافئة.

وجدنا مونتري مدينة صغيرة تتصل بمدن أخرى مثل (كارميل) (باسفك قروف) و(ساند سيتي) وتقع قريباً من أجمل طرق العالم روعة ودهشة.. الطريق (HWY 1) الذي يحاذي المحيط الهادئ والذي يقصده المغامرون من أنحاء العالم لتجربة متعة القيادة عبر تعرجاته المدهشة.

ووجدنا تلك المنطقة مسكن الأغنياء والممثلون والممثلات والباحثون عن السلام وراحة البال.

تستكين هذه المدينة على خليج مونتري الدافئ صيفاً وشتاءً والبعيد عن صخب المدن الكبيرة والقريبة من لوس انجلوس وسان فرانسيسكو وغيرهما.

شتاينبك كتب رائعته أثناء الكساد الكبير في ثلاثنيات القرن الماضي.. ولهذا جاءت شخوص الرواية كذلك حتى الأحداث تدور معظمها في شارع ضيق ما زال حتى الآن يحمل نفس الاسم كنري رو (Cannry Row).

وربما يعيد التأريخ نفسه.. لكنه لا يكرر أحداثه فقد وصلناها (وفاء وأنا) أيضاً مع انتهاء الحرب الباردة ومع إغلاق إحدى أكبر القواعد العسكرية القريبة منها. قاعدة فورت أورد البرية (Fort Ord).. التي غادرها خمسون ألفاً من الجنود وعائلاتهم وكانت مونتري وقتها تشتكي الكساد.. وبقينا طوال فترة تواجدنا نسمع نفس السؤال: هل هذا هو ثمن الانتصار في الحرب الباردة..؟ هل فعلاً كسبنا الحرب..؟ وكيف ونحن نخسر وظائفنا ومداخيلنا وتقفر مطاعمنا وحاناتنا؟

لكننا أنا ووفاء كنا أحد الذين كسبوا بعض مغانم الحرب الباردة.. فلولاها لما حصلنا بسهولة على شقة جميلة تطل على بحر

من العشب وملاعب القولف.. وفي شوارعها المقفرة أيضاً تعلمت وفاء قيادة السيارة.

كانت الدورة التدريبية في جامعة البحرية الأمريكية (Naval Bost Graduate School) لقادمين من أكثر من خمسٍ وعشرين دولة أكثرهم من ذوي المناصب العليا في بلادهم وكنا جميعاً باللباس المدني.

وكانت قاعة المحاضرة خليطاً من هؤلاء القادمين يتحدث كل منا الإنجليزية بطريقته المحلية.. ومن قال إن اللغة الإنجليزية لغة واحدة؟

كان فصلاً جميلاً لتبادل الثقافات.. كنا قادمين من دول كجنوب أفريقيا وكوريا.. من تونس وتشيلي.. من تشاد ورومانيا.. من الكنغو وهندوراس من لتوانيا وغينيا الجديدة ولبنان ومن دول أخرى.. وأنا.

لم تكن دورة عسكرية.. كانت في مجال الإدارة وتوضيح كيف حل المعضلات بمنهج علمي يقوم على المنطق الرياضي.. عبر معادلات ودوال وجداول رياضية وكانت تتطلب درجة عالية من الإلمام بالرياضيات الحديثة.. وتلك كانت معضلتي الكبرى.

كنت منذ البدء فقيراً في الرياضيات وبالكاد كنت أجتاز الامتحانات.. كنت ومازلت أهوى الخيال وأهفو لمنطق الأحلام .

وككل القادمين من هنا أطرب لأفعل التفضيل دون حقيقة

وأقدَر مثلهم كل شيء بالنظر والقياس ولا تعني لنا الأرقام والإحصائيات والمعلومات الشيء الكبير.

ومناهجنا أيضاً جعلت الرياضيات مادة وحيدة وسقيمة.. عرفت بؤسها هنا في هذه المدينة الصغيرة المتكئة على ذراع المحيط الهادئ.

لكن الدورة لم تكن كلها معادلات رياضية.. كانت هناك رحلات وحفلات سمر وزيارات لأماكن جغرافية وتاريخية.. والشعب الأمريكي مغرم بالتاريخ كما نحن هنا مغرمون بالهدم والتغير وقلة الوفاء.

وفي نهاية الأسبوع كنا (أنا ووفاء) ننطلق شمالاً أو جنوباً.. مرة إلى سان فرانسيسكو.. المدينة التي أقامها الباحثون عن الذهب في أربعينيات القرن الماضي.. بحيها الصيني الشهير وجسر البوابة الذهبية الأشهر وسجن (الكتراز) المرعب ومرفأ الصيادين وبكل ما فيها من تنوع وثراء وجمال.

ومرة أخرى نتجه جنوباً نحو لوس أنجلوس.. مدينة اللهو والسينما واستوديوهات هوليود ودزني لاند.

لكني كنت أجدبهجتي أنا القادم من الصحراء في وادي سليناس الأخضر الشهير الذي كتب عنه ابنه جون أشتاينبك رائعته الجميلة (مراعي الفردوس) وفي مدينة سليناس عاصمة المقاطعة مازال منزل

جون هناك بعد أن حُول إلى متحف ومطعم باسمه يبيع كتبه وصوره وصوراً أخرى لذلك العهد الجميل.

وعندما انتهت الدورة وضعنا أمتعتنا في سيارتنا واتجهنا شرقاً عبر الخط السريع (HWY 5) إلى مدينة السهر والمتعة (لاس فيغاس).

وتوقفنا في الطريق عند نزل صغير في جبال (الروكي) وكان التلفزيون يعرض أخبار انفجارات أوكلاهوما الشهيرة.. وكانت كل التوقعات ترجح أن من قام به مسلمون وربما شرق أوسطيون.

وحدق موظف الاستقبال في جوازاتنا ولم يعلق.. لكننا لم نغامر بالخروج ليلتها وفضلنا العشاء في الفندق والرحيل باكراً نحو لاس فيغاس.

وتبين لاحقاً أن من قام به أمريكي هو السيد (مكفي) وليسوا مسلمين أو شرق أوسطيين. وعبرنا كلفورنيا نحو صحراء وولاية نيفادا ووصلنا لا فيغاس.. ووضعنا أمتعتنا وهبطنا نستجلي المدينة التي لا تنام مدينة المتعة والقمار الأولى في العالم ولم يمضِ منتصف النهار حتى كنت قد كسبت خمسة وأربعين دولاراً من إحدى مكائن الحظ.. مكائن القمار، ولم يحل المساء حتى كنت قد خسرت ضعفها.. مما حدا بوفاء إلى أن تتسلل إلى صندوق الأمانات في غرفة الفندق وتقوم بتغيير الرقم السري وتمسك بحزم

وزارة المالية، إضافة إلى وزارة الداخلية كما هو معتاد ولم ترضَ حتى بمنحي قروضاً مؤجلة، وغادرنا بعد يومين إلى ولاية أريزونا.. كنت أريد الوقوف على أحد عجائب الطبيعة التي سمعت وقرأت عنها كثيراً (قراند كانيان) أو مايسمى بالجرف العظيم .. وعبرنا نحو مدينة (فينكس).. ولم أكن أظن أن الثلج يهبط في ولاية أريزونا الصحراوية غير أننا ما إن اقتربنا من منتزه (قراند كانيان) حتى كان الثلج يتساقط كندف القطن والبياض يغطي كل شيء.. وكان مشهداً لن يغادر الذاكرة أبداً.

ووقفنا على ذلك الصدع العظيم.. ذلك الأخدود الذي حفره نهر كلورادو الشهير على مدار آلاف السنوات

كان الوقت قبيل الغروب والتلال تكتسي حلة أرجوانية لونها تدرج الظلال.. كان بحق مشهداً يجل عن الوصف والنهر يتلوى ضائعاً في الأسفل..وعندما سألت وفاء عن رأيها في ماترى.. أجابت أنه لا يعدو أن يكون مجرد حفرة كبيرة ومخيفة ولا تستحق كل هذا المشوار الطويل.

وعدنا إلى مدينة (فينكس) وفي الصباح غادرنا عائدين إلى لاس فيغاس بعد أن جرفنا الثلج عن سيارتنا في تجربة لا تتكرر كثيراً في حياتنا نحن أبناء الصحراء.

كان الطريق جميلاً جمالاً موحشاً.. حيث أشجار الصبار

العظيمة.. وبعض التلال غريبة الشكل التي نحتتها الريح ومحميات بقايا الهنود الحمر.. لكن وفاء أصرت ألا نتوقف إلا في المراكز التجارية.. كان لديها إيمان مطلق (ككل النساء) أننا إذا لم ندخل كل المتاجر التي على الطريق فإن شيئاً ما في نظام المجموعة الشمسية سيتعثر.

أمضينا أياماً جميلة في أحد أجمل فنادق لاس فيغاس الكبيرة (فندق الهرم) وكلمة فندق هنا في غير محلها.. فنادق هذه المدينة هي مدن داخل فنادق حيث مئات الغرف والأسواق والمطاعم وأماكن اللهو.. وبالطبع العشرات من طاولات وآلات القمار.

السكن هنا غير مكلف وكذلك أسعار المطاعم.. هم يريدونك أن لا تغادر.. أن تبقى.. لأنهم على يقين أن نقودك في نهاية المطاف لن تغادر المدينة.. فسحر القمار لا يقاوم.. إنها النفس البشرية المجبولة على الطمع أحياناً واستكشاف المجهول أحياناً أخرى.

وهنا رأيت أجمل النساء اللواتي رأيت.. نساء يلبسن ما خف ودل.. ورأيت أجمل السيارات كالفراري والبنلتي واللمبرغني والمزاراتي.. وما لا أعرف من الأسماء وهنا ما هو أجمل. وبأختصار فأن الحياة هنا رقصة فرح لا تتوقف.

وأخيراً أخذنا طائرة إلى سانت لويس في ولاية ميزوري ومنها إلى مطار جون كندي ثم جدة.

ولو سَأَلنا أحد أي البقاع نتمنى أن نعود إليها.. لأجابت وفاء مونتري.. وسأضيف أنا.. ومدينة النساء الجميلات.. مدينة لاس فيغاس ولكن بصوت هامس صوت لا تسمعه وفاء.

رحلةٌ تأخرت

عندما تهزمني المدن والفضاءات التعب أعود إلى عائلتي وقريتي الجنوبية.. أعود إلى مسقط الرأس.. إلى القمري.. أعود إلى فضاء الصرخة الأولى.. وبيت العائلة الكبير.. أعود للهدوء والسلام وغيم الأمان.

ومن نافذة بيتنا بيت العائلة الكبير.. أحدق شمالاً وجنوباً.. غرباً وشرقاً.. فأرى الأرض التي أعرف ترابها شبراً شبراً والسماوات التي لم تتبدل.. وأعرف الوجوه التي لا تبادل الطمأنينة والسلام بكل خيرات الدنيا.. وأرى البيوت أليفة وودودة والمآذن سامقة في غير كبرياء والأذان بسيطاً وخارجاً من القلب إلى ثنايا الأرواح.

ألتقي بأبي إخوتي وأخواتي الصغار منهم والكبار.. ألتقي بأبنائهم.. بالجدات والعمات والخالات والنساء اللواتي أرضعنني الحكايات وصنعن الحياة ويتجدد كل لقاء كفرح اللقاء الأول.

وألتقي الوجوه التي أعرف والأسماء التي أحفظ التقي البسطاء

والطيبين من الناس وأقبل رأس الكبير منهم والصغير منهم يفعل بي مثل ذلك وأعانق الرفاق كأننا لم نفترق.

وفي القمري أُتلف ساعة الزمن ونداءات الهاتف وأعيد مواقيت الشمس والقمر والنجوم والظلال.. أعود أحدق كثيراً في الفضاء.. فهناك ما يستحق التحديق.

وأجوس القمري وما حولها أتنقل هنا وهناك.. أغسل روحي من وجع الرحيل ومن أضواء النيون.. ألتقط الحكايات والأحاديث وأتأمل مرة ومرة الوجوه التي قد لا أرها أبداً أبداً.

لكني حتى الآن لم أتحدث عن عائلتنا ولا عن أبي وكيف أتحدث عن أبي..؟ كيف يتحدث ابن عن أبيه..؟ وكيف أقترب من بحر لا شاطئ له.. وكيف أرتقي جبلاً؟

أبي محمد والأب لي ولعشرين بنتاً وولداً.

عندما فتحت عيني على الدنيا.. كان في اكتمال رجولته.. غنياً بمقاييس ذلك العهد.. يمتلك أطياناً وخبوتاً فسيحة كوّنها بنفسه ولم يرثّها عن أحد أو من أحد.. وغالباً ما كان يعمل لدينا عمال وأنفارا وكنا نمتلك أبقاراً ومواشي ونفوذاً وعلاقاتٍ كبيرة.

كان أبي تقياً بفطرته ككل مجايليه ودون تظاهر، يبني المساجد ويوقفها ويؤم المصلين في واحد منها.. كان متعلما علم نفسه

بنفسه.. وأجاد القراءة والكتابة والحساب ويتغنى ببعض أبيات الشعر.

وكان متواضعاً تربى يتيماً وتخرج في مدرسة الفقر وكافح حتى لا يكون أجيراً عند أحد ولا نكون نحن كذلك.. ذلك هو أبي.

وعندما وصلت سن الخامسة بدأ بتحفيظي القرآن أنا وأخي حسين.. وعلمنا الكتابة على لوح الخشب قبل رفاهية الورق وقبل أن ندخل المدرسة.. ثم أدخلنا المدرسة التي تبعد عنا أكثر من خمس كيلومترات في وقت كان الكل يرى في التعليم ترفاً ومضيعة للوقت لا أكثر.

كيف أتحدث عن من رباني وعلمني وسهر الليالي الطوال إلى جانبي وأنا أرزح تحت وطأة حمى الملاريا وأمراض البرد ونزلات الشتاء والحصبة والسعال الديكي وكل ما في قاموس الطب من أمراض..؟

كان معتدلاً في كل شيء ولم يكن متهاوناً أبداً.. كان شديداً في غير قسوة.. رحيماً في غير لين.. كان مربياً ومعلماً رائعاً وهو نصف المتعلم.. ذلك هو أبي.

وعندما تفتحت مباهج الدنيا لم تستهوه.. بقي كما هو بسيطاً في ملبسه ومأكله.. ولم يشاهد التلفزيون إلا عرضاً ولم يحاول أن يقتني سيارة أو يتعلم قيادتها.. ولم يسمع الموسيقى ولم يحرمها.. ولم

يسافر إلا للحج.. ولكنه لم يعترض على شيء من ذلك..وقد عرف بوعيه أن الدنيا تغيرت لكنه فضل أن يقف منها على شاطئ الحياد ويرقبها ويتأمل..

واليوم وهو يجاوز الثمانين من العمر.. ما زال متخندقاً خلف كبريائه، رافضاً كل عرض من الحياة.. كأنه ينتظر رحلة أزف أوانها ويرى أنها تأخرت كثيراً كثيراً وأنه مستعد لها منذ زمن بعيد.

باختصار مريع ذلك هو أبي.. وهو أكثر من ذلك.

ولكن من هي أمي؟

هي ابنة عمه.. وشريكته أورثنا زواجهما الحمى المنجلية وأمراض زواج الأقارب والتشابه في الصفات والهيئة وربما الكبرياء.. كانت ابنة عمه ونصفه الآخر وساعده في سنوات التعب كانت سيدة وأماً ولا ككل الأمهات.

كانت تقوم قبل الفجر لتعد له القهوة.. ثم تطحن كماً هائلاً من حب الذرة الصفراء.. وتحلب البقرة وتخض اللبن وتستخرج الزبدة وقبل أن تطلع الشمس تكون قد أوقدت التنور وخبزت العجين لنصحو ونجد كل شيء طازجاً ولذيذاً حيث لا مخابز عدا ما يخبزفي البيوت.

كانت تعد الطعام لعشرة من العمال أحياناً.. ثم تكنس البيت وتجمع الروث لإعمار العشش وتغسل الغسيل.. وفي الفراغ تصنع

الزنابيل من الخسف (الطفي) وترتق الملابس وكانت إما حاملاً أو مرضعاً.. أنجبت أربع بنات وأربع ذكور ولم أتذكر أبداً أنها كانت تتذمر أو تشتكي كأنها لا تنتظر العون من أحد.. وكانت دارنا مفتوحة للضيوف دون موعد وكانت في غياب أبي ترحب بالضيوف وتكرمهم حتى يصل.

وكانت تجامل النساء وتحضر المناسبات.. وكانت نقطة ضعفها هي الخوف علينا نحن.. تخاف علينا الأمراض وما أكثرها وكانت تخاف علينا الموت كما كان يموت الأطفال في ذلك الزمن بمجانية مطلقة وأتذكر أنه وعندما كان البوم يجثم على (قرعينة) عشتنا ترجمه بغضب وتردد ما كانت تحفظ من أيات وأدعية وتعاويذ ثم تجمعنا حولها.. وكأنها تخاف أن يخطف الموت أحداً منها على غفلة.. كانت دائماً جاهزة للدفاع عنا.. حتى ضد الموت.

لكن السيد الموت غافلنا وغافلها ذات عشية وخطفها كما تختطف الحدأة دجاجة من بين صغارها.. ماتت وعيونها معلقة علينا لتفتح لنا الحياة بعد موتها سفر الألم العظيم.

وانطفأت كشمعة ولم تبلغ الخامسة والثلاثين.. وكانت وكانت وكانت.. فأي النساء الآن قد تكون كأمي؟.

وكبرنا نحن أولادها ورأيناها وهي تدبر حياتها وتحتال على ظروف الشح أحياناً دون أن تبوح أو تطلب شيئاً من أبي وبنوع من كبرياء غير مبرر لنا على الأقل في تلك السنوات هذا الكبرياء نما

وتسرب لنا نحن الأخوات والأخوة الأشقاء.. حاجة وحسين.. عمرو وعلي.. ليلى وعبدالله آمنة ومريم.. نحن عيالها الثمانية.. عيال شقارة الأشقاء.

لقد كبرنا ونحن نظن بالحديث والشكوى تجاه بعضنا، ننغلق على ذواتنا كذرات معزولة مفضلين البوح للآخرين أو تاركين للآخر مهمة التقصي والبحث والاستنتاج عما يقلقنا واستمرت قلوبنا قابلة للتشظي ومستعدين بأن نذهب بالأشياء إلى أقصى حدود المستحيل مفضلين وهج اللحظة على القادم نكره كثيراً كلمة الانتظار ناشدين فرح الحضور وراكضين دائماً نحو حمى الفرح والمشاركة ولكننا في الغالب بسطاء ودودون وأنقياء من الداخل وقابلون وراغبون لتقاسم الفرح مع كل من كان وفي المقابل حريصون من البعيد على بعضنا حد الهوس.. وبقيت أشياؤنا وما نمتلك مبذولة لبعضنا بعطاء لا مشروط.. ولم نتغير حتى بعد أن كبرنا وتوزعتنا دروب الحياة.. وبقي أي يوم يجمعنا هو يوم عيد يتكرر.. حتى لو كان على طبق من حساء.. هؤلاء نحن.. الأخوات والإخوة.. أعني الأشقاء والشقيقات أبناء البطن الواحد.. أبناء أمنا شقارة.

أخواي وإخوتي غير الأشقاء كثر.. لكنهم آخرون في كل شيء.. ويظلون إخوتنا وأخواتنا الجميلين.

لقد تغيرت الحياة.. والعالم تغير.. لكن عائلتي وقريتي بقيا مرفأ الأمان لي عندما تهب عليّ عواصف الحياة وعواصف الحياة كثير.

الغداء الحافي

ومرة أخرى أبحرنا لفرنسا لتحديث سفينتا الحربية عبر الشركة الصانعة وبضمان البحرية والحكومة الفرنسية ولرفع الراية السعودية عبر البحار.

مياه كثيرة عبرت تحت جسور كثيرة أيضاً منذ أن غادرنا فرنسا آخر مرة ورغم أن الزرقة هي الزرقة سماء وماء إلا أن أشياء كثيرة كانت قد تغيرت في حياتنا وفي العالم وتغيرت في حياتنا أنا ووفاء على المستوى الشخصي.

أنا غدوت مساعداً لقائد السفينة وبمسؤوليات أكبر وبمزايا أكثر وعدنا نفتش عن الأصدقاء القليلين الذين وصلنا معهم حبال المودة صديقنا القديم تشارلز كان قد تقاعد وعاد يسكن منزله المطل على الأطلسي في إقليم البريتاني بعد أن طوف بغواصته النووية كل بحار العالم يتصيد الغواصات الروسية تحت الماء.

كانت الرحلة أقل شظفاً ومشقة كونها رحلة صيانة في مقامها

الأول، وكانت هناك دعوات ولقاءات ومتع مباحة لكن فرنسا بقيت فرنسا ونحن بقينا أبناء هذه الصحراء رغم كل جسور التواصل.

أتذكر أن الشركة الصانعة كانت قدر قررت أن تقيم غداء عمل للشركات المساندة في أعمال الصيانة بعد وصولنا، ورأت أنه من الأجمل أن يكون على ظهر السفينة كتقليد بحري وتعاقدت مع أحد أشهر الفنادق على توفير متطلبات الغداء.

وعند إحضار الغداء دُعيت إلى مدخل السفينة على عجل كان الغداء يصل تباعاً والمائدة الفرنسية غنية ومتنوعة ولها طقوس طويلة في الأكل وكانت هناك مشكلة صغيرة.

إنه (النبيذ) الفرنسي والذي يعد جزءاً رئيساً من المائدة الفرنسية ودونه لا يكون الغداء غداء ولا الكرم هو الكرم.

وبالطبع طلبنا منهم بكل لطف استثناء غداء اليوم من النبيذ لخصوصيتنا.

وكاد ضابط الارتباط الفرنسي أن يصعق من هذا الرفض واستنجد بمسؤول الشركة الذي أبدى حججاً متعددة وأن الضيافة للفرنسي دون نبيذ تعد إهانة غير أني أوضحت له أن الغداء في أرض سعودية وليس في فرنسا ويجب أن يكون غداء سعودياً.

ـ كيف نحن في طولون؟

ـ أعرف ولكن السفينة ترفع العلم السعودي وهي تعد أرضاً

سعودية حسب القوانين الدولية وأني أتفهم وأقدر مشاعركم وأتفهم أصول الضيافة الفرنسية ولكن عليكم أيضاً تفهم ثقافتنا.

وتوافد المدعون وقدم الغداء دون نبيذ فرنسي وكان الملحق البحري السعودي يقدم اعتذاراته للضيوف على أن هذا الغداء هو غداء حافٍ أو حافي كما قال محمد شكري ذلك ذات يوم في سيرته (الخبز الحافي).. غداء حافٍ ليس لمحمد شكري فضل في ذلك.

ألم أقل لكم أن فرنسا هي فرنسا وأننا أبناء الصحراء رغم كل جسور التواصل..؟

وتوسعت دائرة المعرفة والتواصل هذه المرة بعد أن تعرفنا على صديقنا الفرنسي(وعد) ذي الأصول العراقية أو العراقي ذو الجنسية الفرنسية كما يحب أن يقدم نفسه وزوجته الجميلة السيدة (ندى) وكانوا يعانون وحشة الاغتراب ووجع الحنين والعطش للضاد ودعانا إلى منزلهم.. وفي لحظات قصيرة كسرنا معاً كل الرسميات وبدايات التعارف ولم تمضِ ساعة حتى كنا أصدقاء نذكر السياب والجواهري والربيعي وسعدون جابر ومشتركات كثيرة تجمع العرب وتوحدهم متى غادروا خندق السياسية البغيض وسألت السيدة ندى إن كانت تحتفظ بشيء من الكتب العربية وأخرجت ديوان شاكر السياب وبدأت ترتل لنا بصوتها الآسر:

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السحَر

أو شُرفتان راح ينأي عنهما القمر

عيناك حين تبسمان تورق الكرم

وترقص الأضواء، كالأقمار في نهَر

ـ (عمرو عيني اقرأ لنا إشي تحفظه) هكذا طلبت ندى وعندما قرأت لهم:

حيّيتُ سفحكِ من بُعد فحييني

يا دجلة الخير يا أم البساتين

حيّيتُ سفحكِ ظمأناً ألوذُ به

لوذَ الحمائم بين الماءِ والطينِ

يا دجلةَ الخير يا نبعاً أفارقُهُ

على الكراهةِ بين الحين والحينِ

إنّي وردتُ عيون الماء صافيَةً

نبعاً فنبعاً، فما كانت لترويني

وأنت يا قارباً تلوي الرياحُ به

ليّ النسائم أطرافَ الأفانينِ

وددتُ ذاك الشراع الرخصَ لو كَفني

يُحاكُ منه، غداة البينِ، يطويني.

وانخرطا كليهما في البكاء وتحول ذلك المساء المتوسط إلى شجن وكنت أنا غراب البين.

ومن خلال وعد وندى تعرفنا على أصدقاء جدد أصدقاء من بلاد عربية مختلفة.. بعضهم شردتهم الأنظمة وآخرون شظف العيش والبعض جاء ونسي كيف يعود بعضهم أطباء وآخرون حملة دكتوارة في الفيزياء النووية ومهاجرون ومولودون وكلهم يخشى ضياع هوية أبنائهم وكانوا يبحثون عن أي بلد عربي يقبل بهم وبشهاداتهم لكن البلاد العربية التي تستوعب الملايين توجست من البعض ورفضت الآخر ألم أقل لكم إن العروبة كذبة كبيرة؟

ومن خلالهم عرفنا فرنسا أكثر ورأينا قرىً وقلاعاً وشواطئ جديدة وجمعنا وشوينا معاً ثمار البلوط أو (المارون) أو الكستناء (سموها ماشئتم) والتي كنت أقرأ عنها في الروايات دون أن أعرفها.

ومعهم صعدنا الجبل الأبيض في جبال الألب وعبرنا تحت عشرات الأنفاق إلى الشمال والإيطالي ومن هناك عندنا جنوباً باتجاه ساحل المتوسط إلى جنوه وموناكو ونيس.

وعقدنا معهم صداقة ما زالت، وما زلنا نزورهم كل ما وجدنا في الوقت متسعاً وشرفونا في منزلنا وذهبنا معاً في عمرة لبيت الله.

وذات مساء هاتفت صديقنا الفرنسي (تشارلز) الذي يسكن (البريتاني) وقلت له أما زلت الدعوة قائمة يا تشارلز؟ قال نعم

ويجب أن تأتي أنت ووفاء.. يجب أن ترى إقليم (البرتياني) وقلاعه وحصونه وآخر قلاع الملكية وأنصار الكنيسة الكاثوليكية وأن ترى أولادي الثلاثة.

- ثلاثة يا تشارلز؟ أهذا ما اكتسبته من عادات العرب مع أن الفرنسي يكتفي فقط بكلب وعشيقة بدون إنجاب؟.

وضحك تشارلز القروي الفرنسي وذهبنا إليه عبرنا فرنسا من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي غبر ثلاث مطارات (مرسيليا) (ليون) وصولاً إلى (برست).. واستقبلتنا زوجته (فرنسسكا) وأقمنا في نادي الضباط الفرنسي (سيركل نافال).. وكانت تجربة فرحت بها وفاء كثيراً تجربة لا تتكرر كل يوم.

وسعدنا بهم كثيراً ورأينا بقايا المدافع الكبيرة التي نصبت لحماية فرنسا من الألمان وبقايا السفن الغارقة ورأينا الشواطئ الصخرية التي يهب عليها الهواء البارد طوال العام وتضربها مياه المحيط الأطلسي طوال العام.

وتذكرت رائعة فيكتور هيجو عمال البحر (Les Travailleurs Della Mer) وأنا أقف على أحد تلك الصخور النائية.. كنت أسأل على أي الصخور النائية جلس (جليات) الذي قرر أن يموت بطرِيقته بعد أن فقد حبيبته (داروشات) التي تزوجت غيره وهجرته؟ عندما قرر أن

يقتعد صخرة يراقب منها رحليها على الباخرة (كشمير).. حتى غابت وتلاشت في الماء يقول هيجو:

(كانت هذه النظرة محتوية على كمية التهدئة التي يتركها الحلم غير المحقق إنها الرضى الحزين الرهيب الحزين بخاتمة أخرى).

ويقول: وفي الفترة التي إمّحت فيها السفينة في الأفق واختفي الرأس تحت الماء ولم يبق بعد ذلك غير البحر.

حقاً لا يبقى غير البحر وأنا أيضا عدت وركبت البحر بعد حين وعبرت المتوسط مرة أخرى ثم قناة السويس وأخيراً البحر الأحمر إلى جدة ولم يتبق من فرنسا غير الذكرى والصور وحنين يتجدد كل حين.

مفهومٌ آخر للنظافة

ويظل للعيد مع العائلة طعماً مختلفاً وللعيد في القمري طعماً آخر فرح الأعياد الضاجة بالبهجة والفرح والقلوب الراشحة بالعطاء.

كان يفترض أن أغادر إلى بنقلاديش لأكمال دورة الأركان التي كنت قد بدأتها قبل عشرة أشهر لكن فرح المساءات في القرى ودفء العائلة بعد غياب وقسوة الحياة في بنقلاديش جعلني أتأخر عن الرحيل في الوقت المفترض وأتعلل بشتى المعاذير.

وعندما وصلت إلى مدينة (دكا) عاصمة بنقلاديش كان ضباط الدورة قد غادروا في رحلة تدريبية نحو الجنوب نحو مدينة شتاقون ميناء بنقلادش وثاني أكبر مدنها والواقعة جنوباً على خليج البنغال وقريباً من حدود بورما أو ما يسمى الآن (بماينمار)، وقررت أن ألحقهم بالقطار رغم ممانعتهم من أجل سلامتي.

كنت أعرف مسبقاً أن رحلة القطار ستكون متعبة وأن القطار سيكون متكدساً بأصناف البشر والبضائع وأقفاص الطيور والخضار

وسلال الفواكه لذا حجزت مقعدين حتى لا أضطر إلى ملاصقة أحد وحجزت فيما يسمى بالدرجة الأولى.

كنت قد تجولت في النمسا بقطارات الدرجة الأولى حيث الغرفة فندقاً متحركاً وفي فرنسا بقطاراتها السريعة وفي إسبانيا بقطاراتها الممتعة أما هنا فمفهوم الدرجة الأولى موضوع مختلف لكني لم أكن متطلباً كنت أتفهم ذلك هناك وسط أوروبا وهنا جنوب آسيا والهوة بين آسيا وأوروبا سحيقة ونائية نأي هذه البلاد البعيدة نأي باريس عن دكا.

كنت أعرف مسبقاً مشقة الرحلة في بلاد كبنقلاديش فقد أمضيت فيها عشرة أشهر وتجولت عبرها بالسيارات والطائرات العسكرية وقوارب الأنهار وعرفت معنى المشقة ومن أجل ذلك تسلحت بحقيبة يدوية تحتوي على قوارير للمياه الصحية وحليب مبستر وعلب للبطاطس المجففة (تشبس) وكتاب للرحلة وأقراص البنادول وتسلحت أيضاً بالصبر وطول البال ورغبة الأكتشاف.

وتحرك القطار عبر مدينة دكا يكاد يلامس جنبات المباني الواطئة والناس هنا تنام وتعيش وتولد وتموت ولا تكترث لهدير قطار عابر وكان يجلس في المقعد المقابل أمامي شخصان عرفت فيما بعد أن أحدهما إمام لمسجد والآخر عامل سابق في الكويت وكلاهما يتحدث شيئاً من اللغة العربية.

وما أن عبرنا مدينة «دكا» حتى توقف القطار في محطة أخرى وصعد وهبط حشد آخر من البشر والقطار يمضي وكنت في موقف المتفرج أراقب الحشد من الداخل وأراقب المزارع والبيوت الواطئة والمبنية من الخيزران والصفيح في الأغلب وكان آخرون يتفرجون عليّ أيضاً ولعله يندر أن يعبر شخص سعودي بنقلادش خاصة في قطار المساء الموغل نحن الجنوب.

البنقلاديشيون ودودون بطبعهم ومتطفلون إيضاً ولا تمضي خمس دقائق من أول لقاء أو مصادفة مع أحدهم حتى يكون قد سألك اسمك وبلدك ودخلك الشهري وعن عدد أفراد عائلتك وعما إذا كنت تستطيع أن تأخذه معك إلى بلدك وربما بنقلادش البلد الوحيد الذي كل من فيه يحلم بالمغادرة والخروج!

وأخيراً هبط الليل ولم يعد يرى شيء سوى ظلال الشجر المغادر للوراء وأضواء فوانيس شحيحة الضؤ ولم يعد يسمع سوى قرقعة القطار.

وبعد قليل عبر شخص يحمل سطلاً به أكواب مغمورة في الماء وفي اليد الأخرى ثلاجة (ترمس) مملوءة بشاي يبيعه للمسافرين وعزم علي جيراني بكوب من الشاي فاعتذرت بلطف وشكرتهم ومضى القطار وبعد قليل مر شخص يحمل شيئاً مطبوخاً يبيعه ملفوفاً في ورق الموز واشترى جيراني وعزما عليَّ وشكرتهما

واعتذرت وأخرجت قارورة الماء وبدأت أشرب على مهل وأحتمي خلف كتابي من الفضول وأتطلع من حين لآخر إلى الخارج الغارق في الظلام، كان ذلك الشخص الذي قد عمل في الكويت مصراً على التحدث معي بلغته العربية الصدئة، وكان الإمام يحاول الاشتباك معي بلغته العربية التي تعلمها في المدرسة الدينية المعروفة عندهم (بالمدرشة) وتعني المدرسة وكنت أحاول التواصل معهم قدر ما أستطيع.

وبعد قليل مر بائع آخر يحمل شيئا ما ملفوفاً في ورق الجرائد وعزما عليَّ مرة آخرى، واعتذرت ولاحظت استياءهما وفتحت حقيبتي اليدوية وأخرجت منها علبة الحليب المبستر بطعم الكاكاو وبدأت أشرب على مهل وكان الغبار أيضاً قد غطى كل شيء وبدأ أيضاً يغطيني

وبعد قليل مر عسكري مسلح وسألتهما لماذا هذا العسكري؟ وشرحا لي أن عصابات تتعرض القطارات أحياناً وتفصل بعض عرباته وتسطو على المسافرين بمن فيهم هذا العسكري البائس خاصة قطارات الليل كقطارنا هذا.

وكان القطار يتوقف في محطات كثيرة ويغذ جنوبا في ذلك الليل المداري.

وقمت أتجول في القطار علي أرى العربات الأخرى لكنها لم

تكن تختلف كثيراً عدا أن التكدس أكثر والنساء المتشحات بالسواد أكثر وكان الكل إما يأكل أو ينام.

ودخلت دورة المياه التي أستخدمها بكل تأكيد جنود الإمبراطورية البريطانية أثناء مغادرتهم إقليم البنقال نحو بورما لمواجهة جنود الغزو الياباني أثناء الحرب العالمية الثانية الذين كانوا قد اكتسحوا كل جنوب آسيا ووصلوا بورما (مينمار) ولم تكن (دورة المياه) تلك سوى ثقب أسود في صفيح صدئ يفضي للفراغ إنها بنقلادش أرض الجياع والأنهار والأديان..الأرض الواطئة إنها بلاد الماء.

أتذكر أنني عندما رشحت إلى الدورة هنا كانت وفاء أكثر حماساً مني للسفر كانت مثل كل بنات جيلها مغرمة بالأفلام والموسيقى الهندية، وكانت تظن أن بنقلادش لن تختلف كثيراً عن الهند ولا عن المشاهد الجميلة التي تظهر في الأفلام حيث البحيرات والأنهار والنساء الجميلات والوسيمين من الرجال وأجواء المغامرة والتشويق.

لكنها وبعد أن عبرنا بوابة المطار بدأ يتكشف لها أي نوع من الحياة ينتظرها لمدة عام وكنت أحاول أن ألطف عليها هول الصدمة باختراع الحكايات وبالحديث مع السائق الذي استقبلنا وبالأشياء الجميلة التي تنتظرنا في بنقلاديش وأرقبها بطرف عيني وأرى غيوم

القلق تتالى على وجهها وكان على لسان السائق جملة واحدة (We have poor country sir) بلدنا فقيرة يا سيدي، كأنه كان يستجدي أو كأنه يعتذر أوكأنه يؤكد لوفاء دون قصد أنها وقعت في مصيدة كبيرة ولعلها ساعتها أدركت معنى أن تكون بنقلادش إحدى أكثر دول العالم تخلفاً وازدحاماً وفقراً وفساداً وأحست أنها قد وقعت في الفخ ولكن فات الرجوع

كان موقع الكلية الذي قصدناه خارج المدينة أكاديمية عسكرية بعيدة نسبياً عن الضوضاء والتلوث والتكدس.. كانت أجمل قليلاً من وسط المدينة وكانت نسمة عزاء جاءت تماماً في أوانها.

وعندما دخلنا الشقة الجرداء إلا من أسرة النوم المنصوبة تحت الناموسيات كفخاخ أسطورية والأشياء القليلة الأخرى ورأينا قطعان الوزغ وأسراب الحشرات المختلفة تجددت الصدمة لدى وفاء.

وسألت المرافق الذي استقبلنا:

لم لم تنظفوا لنا الشقة قبل الوصول..؟ وأقسم أنها نظفت بالأمس وكان صادقاً ولكن للنظافة في بنقلاديش مفهوماً آخر يختلف كثيراً عن مفهوم وفاء للنظافة على الأقل.

وكان أول قرار اتخذناه هو أن نذهب إلى السوق لشراء المنظفات والمطهرات وأدوات التنظف.

وذهبنا رغم التعب وكان في استقبلنا جيش عرمرم من

الشحاذين وذوي العاهات المتنوعة ومرضى الجذام والمياة الراكدة وأسراب الذباب ولم يكن هناك أشياء كثيرة في السوق لتشترى، كنا نبحث عن المنظفات والمعقمات والمطهرات وكل تلك الأشياء كماليات في بنقلاديش وكانت تلك صدمة أخرى.

واشترينا كل ما وجدنا (كلوركس) مهرب من دبي فقد رائحته ومفعوله وديتول لا يباع في غير الصيدليات كدواء وبودرة صابون محلي ومبيدات وما تيسر من مكانس ومناشف ومساحات أرضية.

وبدأت رحلة تنظيف شاقة استُخدمت فيها كل تلك الأشياء والكيروسين والرماد والبخور وكتيبة من النساء لم يصمد منهن أحد عدا واحدة كانت كانت قد عملت في البحرين.

وكانت عاجزة عن فهم سر هذا الهوس وهذه النظافة غير المبررة ولم حتى الخوف من الوزغ؟.

وبعد أيام غدت الشقة قابلة للسكن وتجاوزت وفاء هول الصدمة غير أنها ما لبثت أن وقعت أسيرة التسمم الغذائي.

وقرر الطبيب تنويمها في المستوصف ولكن كيف وخيوط العنكبوت تطرز ستائر المستوصف؟

ورفضت البقاء وكرر الطبيب كأنه يعتذر أننا فقراء يا سيدتي.. وصرخت قائلة:

لا دخل للنظافة بالفقر قليلاً من الماء والصابون فقط وما المشكلة في هذا؟

وتعافت وفاء لكنها غدت أكثر حرصاً وقلقاً من الدعوات ومن الأكل ومن كل شيء وكنت أشعر بذنب لم أقترفه لكنها بنقلاديش.

ومضت الحياة وغدا لنا أصدقاء من العائلات السعودية القليلة والعربية المتواجدة ثم توسعت العلاقات والصداقات واكتشفنا في بنقلاديش أشياء جميلة وتوثقت علاقتنا بها وتوثقت علاقتي أنا بها أكثر وكيف لا وهي بلاد الماء.

عندما نسيت أن أكسر الجرة

وكتبت بعد أيام من الأستقرار في دكا رسالة لأختي لمريم في قرية القمري وصلتها بعد شهر قلت فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

العزيزة: مريم

سلامٌ عليك

تكبرين ولا تكبرين في ذاكرتي، تبقين لي اليقين الجميل في دنيا تتغير كل يوم والبقية الباقية من زمن جميل لن يستعاد.

أجوب البلاد، أرى ما أرى، لكن بقعة في الكون تدعى القمري تظل الملاذ، ألتقي كل يوم وجوهاً كثيرة لكن وجوهكم تظل الفنار المضيء في ليالي الاغتراب الطويلة آنيّ بعدت أنيّ أجترحت المسافات لا أتبدل وأظل أحن إلى الطل والظل وقهوة القشر والزنجبيل في الصباحات الندية وبسكويت أبو ميزان وحلوى المشبك، وأحن إلى تراب لا يعادله التبر.

أتظنين يا مريم أني أكتب تحت وهج الحنين؟ هذا الداء اللعين الذي لا أبرأ منه؟ لست على يقين لكن يقيني بكم لن يزول.

السلام عليكم ورحمة الله

سأحدثكم لكم قليلاً عن بنقلادش هذه البلاد البعيدة عنكم.

ولكن ماذا أقول لكم عنها وقد غدت الوطن حتى إن كانت لأشهر؟ سيكون جحوداً غير مبرر لو لم أتحدث عنها بحياد إن قدرت فللأشياء أيضاً ظلالها وإذا لم يكن لبنقلادش حاضر زاهٍ فإن لها ماضٍ ربما كان جميلاً ـ هكذا يقول عنها أهلها وتقول الكتب وهكذا أرى وهكذا عرفت أيضاً.

فمن هنا مرَّ فاتحون وغزاة وقامت ممالك ودول وحضارات دولة المغول التي صنعت حضارة زاهرة في الهند الكبرى لم يعد منها غير (تاج محل) رمزاً للحب والوفاء الإنساني وبعض القلاع والمساجد والحصون التي كانت هنا وبقي منها قلاع وحصون في بنقلاديش، وما زالت آثارها شاهداً على حضارة شامخة.

كانت هذه الأرض زاهرة ثم دالت عليها الأيام.. وبريطانيا التي كانت عظمى والتي كانت ترى في الهند الدرة الأغلى في تاجها، كانت ترى في أرض البنقال أرض الخير والعطاء لقد حكمت بريطانيا هذه القارة بعشرين ألف رجل فقط ومن هنا كان يخرج القطن الذي غذَّى آلات النسيج في الأمبراطورية العجوز والشاي

والأرز الذي أطعم جيوشها في أصقاع الكون وصنع جزءاً من عظمتها الغاربة والرجال الذين كانوا جنوداً أيضاً ولكن ماذا بقي من كل هذا؟ الأرز والشاي لم يعودا يكفيان جياعها.. ماذا أقول لكم عن البلاد التي كانت عظيمة وغنية وشاهقة ثم مزقتها الحروب والأيديولوجيات ومحدودية الفكر البشري البلاد التي كانت جزءاً من الهند ثم باكستان الشرقية ثم بنقلاديش ولم تعد (كما كانت الهند الكبرى) أرض الحلم والسحر والغنى وغدت باكستان والهند وبنقلادش ونيبال وبوتان وكشمير أرض الفقر والجوع والحروب والبؤس الإنساني.

أتظنين يا مريم أن التاريخ ثوراً مجنوناً يجر عربة الجغرافيا؟ أم أن الجغرافيا طفلة بائسة لأب متسلط هو التاريخ؟ ربما لا هذا ولا ذلك ولكنه الإنسان صانع سعادته وشقاءه ودرب ألمه وأمله وقدره واختياره الأخير.

وإذا كان أنيس منصور يرى في التاريخ أنياباً وأظافر فإن ذلك ليس هنا التاريخ هنا أفواه وأمعاء ولا غير ذلك في هذه الأرض الخصبة الممتدة إلى الشمال من الخليج المسمى باسمها خليج البنقال والمقسمة بين الهند وبنقلادش، حيث مصب أكبر أنهار القارة الهندية نهر الغانج وبراهمابوترا وبادما وأكثر من سبعين نهراً كبيراً وثلاث مئة نهرٍ صغير. هذه الأرض العجيبة التي تموت من الماء وتحيا من الماء تغمرها المياه في الصيف فتتلف كل شيء

وتغمر كل شيء وتنحسر عنها في الشتاء فيتلف كل شيء، والإنسان هنا عاجز أحياناً ومتقاعس في أغلب الأحيان. في هذه البلاد عرفت جيداً لماذا يبقى الفقير فقيراً وكيف يغدو الغني غنياً وكيف تغدو القناعة المفرطة لغماً في طريق الحياة.. في بنقلادش كما في الصومال وفي بلاد أخرى كثيرة يموت الأنسان جوعا وسط الماء والأرض الخصبة لأنه يريد السماء أن تمطر خبزاً ووعوداً تتحقق ويظل ينتظر، وإذا لم تفعل ولن تفعل تعلل بقدره وحظه وبالجغرافيا وبكل شيء عدا عجزه هوه لكنها هكذا هي الحياة مزيج من البؤس والنعيم وإذا لم تكن كذلك لغدت فردوساً أرضياً وانتفت الأشواق إلى جنة الأخرى وانكسرت بواتق الأحلام.

بنقلادش علمتنا أشياء كثيرة علمتنا أنه لا حدود للشقاء البشري والغباء البشري.

وعلمتنا أن الغرب غرب والشرق شرق ولن يلتقيا.

وفي خارج العاصمة يأخذ البؤس بعداً آخر الناس هنا أشباح هزيلة متحركة بائسة في أسمال ممزقة ولكن هذه الأفواه الجائعة تقتطع اللقمة لشراء بخور وقربان وماء يرش على قبر الوالي للقبور هنا قداسة كبيرة يزورها الناس يتمسحون بأركانها ويبكون على جدرانها ويشربون من الماء الآسن القريب منها ويأخذونه للتداوي وتقوم حولها تجارة للبخور والعاويذ والأحجية وتجارة الأوهام

الناس هنا تبحث عن العزاء والوهم حيث لا يكون.. الإسلام هنا مزيج من الهندوسية والبوذية ومن العادات أيضاً الدين هنا لم يحرر الإنسان ولكن لا غرابة إنه الشرق بلاد الخرافة والبؤس والجهل.

مريم هذا بعضاً عن بنقلاديش والحديث يطول ويطول والسلام عليكم،

أخوكم عمرو

وعندما أقرأ هذه الرسالة الآن أشعر أنني ربما قسوت كثيراً على بنقلاديش، (بلاد الماء) كما أسميتها ونسيت أن أذكر أشياء جميلة، ربما لأني عبرتها ذلك الحين تحت قسوة الحنين وفقر المكان ونسيت أن أذكر أن البنقالي مضياف وكريم جداً وأنه لا يجب أن نصدر أحكاماً عليهم من خلال فقراء العمال لدينا ونسيت أن أذكر أيضاً أني تعرفت ومن خلال زملائي الهنود هنا على معدن ونبل وكبرياء الرجل الهندي والذي تحمل له ثقافتنا صورة خاطئة بالمطلق، الهندي ذكي جداً ومعتز جداً بنفسه وبلاده وثقافته وودود مسالم أيضاً ونسيت أن أقول إني تعرفت جيداً على رجال البلاد البعيدة (الصين) الذين لم نكن نعرفهم إلا من خلال الإعلام الغربي الموجه والمنحاز لمصالحه والذي كان يصورهم لنا أنهم قساة وجبابرة وبلا قلوب تنبض، وعندما اقتربت منهم عرفت كم نغدو ظالمين عندما نسلم عقولنا لأي كائن من كان لقد وجدت في

الأصدقاء الصينيين من النبل والكرم وفيض المشاعر ما لم أكن أتصور وقد ودعنا بعضنا عندما حان الفراق بعناق ودموع وعناوين ووعود بإبقاء جسر الصداقة مشرعاً على سديم الزمن لكن الأيام تُبلي كل شيء حتى الوعود الحميمة.

وانتهت الدورة الأغنى تجربة والأجمل صدقاً في العلاقات والنبل البشري دورة الأركان في بنقلاديش.

وحصلت أيضاً على ماجستير من جامعتها الوطنية جامعة بنقلاديش.

وفي الحجاز يكسرون جرة خلف الشخص الذي لا يريدون له أن يعود إلى المكان الذي غادره ولأن وفاء عادت قبلي فقد أوصلتني أن اشتري أنا جراراً عدة وليس واحدة وأكسرها بعد أن تسافر حتى لا تعود أبداً.

ولم أفعل ولهذا عدنا معاً بعد عشر سنوات ولكن بثوب آخر وأفق آخر وحكايات أخرى، حكايات بدأت ولن تنتهي وبحب سيظل يلازمني كل العمر ومن كان يصدق أني سأكون أسير هوى بلاد بنقلاديش بلاد الماء.

جلالته لا يعرفني

وعدت من بنقلاديش.. حاصلاً على دورة الأركان وعلى شهادة ماجستير في مجال الحروب الدفاعية وعبر أطروحة في مجال الحروب الإلكترونية.

وكنت أغذ نحو الأربعين بثبات سعيداً في عائلتي ناجحاً في عملي وقريباً من الحصول على رتبة عقيد ومن التتويج بأفضل عمل يصبو إليه أي ضابط بحري قيادة سفينة حربية.

كان لي صديق وزميل من البحرية الهندية في دورة الأماكن وكان يسألني.. ما العمل الذي سيوكل إليك بعد عودتك إلى السعودية.؟

قلت له ربما أكون قائداً لسفينة حربية.

قال يستحيل.. لم أرك جاداً أبداً يوماً.. فكيف تكون قائداً لسفينة بكل تعقيداتها..؟

ضحكت وقلت له أتمنى أن لا يسمعك أحد من قياداتي وحتى لو سمعوك فلن يصدقك أحد منهم.. لأنه يظنون أني شخص

مسكون بالنكد والمشاكسة وأنت تقول غير ذلك؟ أنا هنا في بنقلاديش ولكن هاتفني بعد ستة أشهر وسأقول لك أين انتهى بي المطاف؟!

وهاتفني صديقي راج وقلت له إني قائد لسفينة جلالة الملك(بريدة) ولم يقل شيئاً سوى: يا إلهي.. هذا شيء لايصدق.. وقلت يا راج إن كنت تظن أن الهند بلاد السحر فنحن هنا في بلاد المعجزات وضحكنا وافترقنا.. ولم تكن هناك معجزة.. فقد أمضيت عشرين عاماً في البحر قبل أن أظفر بهذا الشرف شرف أن أكون قائدا لإحدى أكبر سفن الأسطول.

القيادة هي حلم كل ضابط في كل جيش من جيوش العالم.. لكن قيادة السفن الحربية شيء مختلف.. في الولايات المتحدة لا يعين قائد السفينة حتى يعرض على عدد من الأطباء النفسيين لا لشيء سوى الضغوطات التي قد يواجهها والقرارات التي يجب أن يتخذها في البحر بعيداً عن أي عون. لا شيء يعادل سحر ووهج أن تكون قائداً لسفينة وكل من كان قائداً يعرف لذة وسحر ذلك. قيادة السفينة يختلف كليا عن أي قيادة في البر.. أن تكون قائداً في البحر يعني أن تكون قائداً للكل وأباً للكل وأخاً للكل ومسئولاً عن الكل ومقرراً عن الكل وأن تكون جزءاً من كل هذا الكل وأحياناً يجب أن تكون الكل عندما تكون وحيداً بين الماء والسماء.

عندما تبحر السفينة نحو البحر.. نحو الزرقة والماء وطيور النوارس عندما تنفصل هذه القطعة من الوطن عن اليابسة، تغدو أنت وليس غيرك مسئولاً عن حياة مأتي شخص.. وقطعة بحرية بكل بهائها ومعداتها وأسلحتها وذخائرها وأسرارها.. وتكون نهباً لمشاعر شتى من الفخر والحرص والقلق والشعور بعظم المسؤولية..

عندما كنت أبحر كنت أتحول في داخلي إلى شخص آخر حتى وإن بقيت في ظاهري بنفس السمات.

في البحر تتطور حواسي الخمس وتغدو أكثر من خمس وتغدو أكثر حساسية وإستشرافاً وأعرف مثلاً دون أن يقول لي أحد أن ماكينة ما قد توقفت أو أن شخصاً ما ترك مناوبته ليحضر لنفسه كوباً من الشاي في منتصف الليل.. وأن سفينة أخرى قد اقتربت أكثر مما يجب وأن ضابطاً متدرباً لم يصحو في الموعد المحدد كثيراً ما حدث ذلك.. هذه الحواس اللاقطة.. والجزء الخفي من الرؤية الذي أتحدث عنه هو داخل كل واحد منا غير أننا لا نستفزه إلا عندما نكون بين خيار أن نكون أو لا نكون. هنا تستيقظ الغريزة التي عاش بها الإنسان الأول وبها نجا من الكوارث والوحوش والهلاك وعاش يستيقظ قبل أن ينهار بيته بثوان ويهرب وينجو دون أن يقول له أحد سوى الغريزة، هذه الغريزة وغرائز أخرى خبت داخلنا بعد أن

استشعرنا الأمان وأبدلناها بحواس صناعية.. لكنها تنشط مرة أخرى عندما نكون بين خيار أن نكون أو لا نكون.. هل تصدقونني..؟

ولأننا في البحر وعلى هذه الصفيحة من المعدن الصلب.. نكون بين خيار أن نكون أو لا نكون ولا ملاذ فإن جزءاً صغيراً من هذه الرؤيا يستعاد.

في البر يتربص بك عدو واحد.. هو العدو.. لكن في البحر هناك ما لا يحصى من الأعداء.. الحريق العدو الأول والحاضر دائماً..المناطق الضحلة..الشعاب المرجانية.. السفن الأخرى.. الإهمال.. ألأعطال..الطقس الذي لا نهتم به كثيراً في البر وأخيراً العدو.. وهذا هو الأسهل..ويعرف كل قائد هذا الذي قلت.. يعرف كل من عمل في البحر ذلك.. وهل من أحد هنا ليؤمن على ما أقول؟ في البحر لا يكفي أن تحب العمل.. يجب أن تعشقه يجب أن تكون هناك حالة من التوحد بين الإنسان والآلة وأن تخلق لغة صامتة وغير مرئية بين الاثنين.. لغة صامته تقول كل شيء دون أن تفصح، وفي اللغة الإنجليزية يرمز للسفينة بصيغة المؤنث وليس بصيغة غير العاقل.. يرمز لها بـ (She) وليس بـ (It).

غير أنني وعندما كنت أقف في جانب برج القيادة منتصف الليل وأنظر إلى الوراء وأرى هذه السفينة بما تحوي من بشر وأسلحة ووقود وذخائر وأعرف أني وليس غيري الأكثر مسئولية عن كل

هذا.. يفر النوم من عيني وهو شحيح.. ويهبط عليَّ جزء من الرؤية التي حدثتكم عنها.. فأحمل كشافي الصغير وأصطحب أحداً معي.. وأتنقل من مكان إلى مكان لأطمئن بنفسي.. وأُطمئن غيري والذين يشعرون بالأمان أيضاً عندما يشاهدوني معهم ويعرفون أننا وبروح العمل والزمالة نمضي كما يجب أن نفعل.

وفي البحر توحدت كثيراً مع نفسي وقرأت أجمل كتبي.. كتبي التي لن أقرأها الآن لأن الوقت ليس مبذولاً بكل ذلك الفيض من الكرم وحيث لا شيء هناك سوى السماء والماء وصوت البحر الغامض.. وهذه الصحراء اللانهائية من الزرقة وحيث لا أسماء لتلال ولا أودية ولا أفق غير الأفق البعيد.

وفي البحر رأيت صديقي القمر كما لا يرى إلا هنا.. رأيته كيف يغدو جميلاً جمالاً قاسياً حين يكتمل وكيف يحيل البحر كل البحر إلى أنثى عاشقة مغمضة العينين تنتظر المشتهي ورأيت النجوم شواهد الزمن وما خبأ العابرون النجوم في البحر خرافة أخرى أعدادها اللانهائية وسطوعها المربك شيء مختلف.. ورأيت أيضاً كم هو ضئيل هذا الإنسان وكم هو جبار وكم هو محير!

وفي البحر تغدو الزمالة العسكرية ميثاقاً مقدساً.. حيث تتوحد للكل فرص النجاة أو الموت معاً وبنفس القدر.. والمشاهد التي

ترى والطعام الموحد الذي يؤكل.. ومواعيد الصلاة ومقدار ومواعيد الماء الذي نشرب أو نفقده معاً دون اختلاف.

وفي البحر كان يتملكني شعور بالكبرياء وهو أني أمتلك تميزاً ما.. فهذا جناح القائد.. وطباخ القائد وزورق القائد وعلم القائد وحتى طائرة القائد صحيح أنها طائرة عمودية قتالية.. لكنها تطير وتهبط بأمر القائد وبإمكانه أن يسرجها ويتنزه بها في قفار الماء وقريباً من الغيوم.. هذا الشعور الخبيث يتملكني أحياناً غير أني أبعده سريعاً.. وأقول ما بين ذاتي وذاتي إن هذا التميز لي الآن فقط لأن فقط لأن مسؤوليتي أكبر وليغدو عملي أسهل وأنها أدوات مساعدة لا أكثر وأنها ستؤول لمن يخلفني.. وقد كان.

وفي البحر كل يوم هو يوم مختلف.. لقد نسيت كل تواريخ الترقيات التي حصلت عليها.. لكن ترقيتي وأنا تحت ظلال المداخن شيء مختلف.. كنت في تمرين مع بحرية مصر العربية الشقيقة ووصلتني برقية الترقية هناك.. وعندما شاهدني الإخوة المصريون في اليوم التالي برتبة عقيد تساءلوا إن كنت ذا علاقة قريبة بالأسرة المالكة لتصلني الترقية هنا وضحكت.. وقلت لهن نعم.. أني أعرف الملك جيداً وإن كان جلالته لا يعرفني كثيراً وضحكنا معاً كأصدقاء كنا ومازلنا.

وعندما كنا نعود إلى اليابسة كل مره نعود بشعور الفاتحين..

نربط سفينتنا ونهاتف عائلاتنا ونعود للأوراق وصداع التلفونات ومواعيد المستشفيات وقلق التراب الذي سيظل تراباً. غير أني لم أعد أمتلك هذا الشعور الخبيث فهذا التميز تلاشى مع آخر صافرة سمعتها وأنا أغادر. ولو سألني أحد ما هي أجمل سنوات العمر؟. لن أتردد في أن أقول وبكل يقين أنها هذه السنوات وأني لن أتجاوز تلك البهجة مهما امتلكت. هذه أجمل سنوات العمر.. وأجمل سنوات العمل.. وأجمل سنوات الأحلام فما هي أجمل سنوات أحلامكم.. وهل ما زالت..؟.

البحار الأصيل لا يحرق مراكبه

غادرت السفينة.. نفضت عن كتفي غبار المداخن للمرة الأخيرة.. وُصفرت لي صفارات أربع.. كان من المفترض أن يقرع لي الجرس أربع مرات.. هذا تقليد سنته البحرية البريطانية منذ ثلاثمائة عام وأكثر عندما يدخل أو يغادر قائد السفينة يقرع له الجرس أربع مرات ليعرف كل من داخلها أن القائد وصل السفينة.. لكن فتوى من فتاوى الصحوة تدخلت وحرمت الجرس لأن فيه تشبهاً بالنصارى وأباحت مكانه الصافرة.. وبنفاق سلطوي مُحيت ثلاثمائة عام من ذاكرة البحار.. حدث هذا.. ولكن لا يهم لا يهم أشياء كثيرة أهم من ذلك قد أبيدت من حياتنا.

وأخذت العلم الذي كان يرفع في أعلى مكان في السارية عندما لا يكون قائد السفينة هناك أيضاً.. علم القائد.. وهو تقليد آخر يأخذه القائد معه في آخر يوم كوشاح بطولة.. ولكن حتى هذا التقليد يتلاشى ولا يعرفه الكثيرون من بحارة اليوم، وحتى هذا لا يهم أيضاً، لا يهم.

وقررت أن آخذ إجازة طويلة.. كنت بحاجة إلى التحرر من

الهاتف والنداءات بعد عامين من القلق والحرص واستنفار الحواس.. وقصدنا (وفاء وأنا) إسبانيا.. هذا البلد الذي عاش في ذاكرتنا وطفولتنا وكتب تأريخنا وشكل الكثير من ذاكرتنا إنها الأندلس.. الأندلس.

وقررنا أن ندخلها من حيث دخلها طارق بن زياد عبر البر الإفريقي وعبر المضيق المسمى باسمه مضيق جبل طارق.. كانت رحلة للترويح وللتأريخ أيضاً.

سافرنا إلى المغرب والمغرب قصة أخرى المغرب أحد أجمل بلاد الدنيا وأكثرها تنوعاً وغنىً بكل شيء.. ملتقى حضارات وتقاطع قارات وتماس الغرب والشرق الصحراء بالمتوسط والثلج بلهيب الشظى وعدوة العرب الأخيرة وذهبنا إلى طنجة هذه المدينة التي يقولون إن من رآها يبكي عليها عند الرحيل ومن لم يرها تبكي عليه هي أيضاً تبكي خساراته ووجدت أنها أكثر من مدينة إنها غانية تنام على ذراع بحرين وحضارتين وثقافتين وأنها كما قال عنها محمد شكري مدينة يفض بكارتها كل من دخلها.. وفتشت عن محمد شكري وأصدقائه الشواذ الذين أحبوها وعاشوا فيها وكتبوا عنها ومنها.. جان جينيه.. وبول بوولز وتنسي وليامز وسواهم ولم أجدهم لكننا زرنا السوق الداخلي الذي خلده شكري ومغارة هرقل الخالدة بوجودها ورأينا قصوراً تدير أسوارها للفقراء ورأينا هناك جيرة وحنيناً ممزقاً.. حنين محطات الانتظار. ومنها ركبنا عبارة

أندلسية اسمها أيضاً مراكش وعبرنا البوغاز في ساعتين.. ومررنا بجانب الصخرة التي كانت تسمى صخرة هرقل.. والتي سميت فيما بعد جبل طارق.. حيث هبط للبر الأوروبي في المرة الأولى وهناك أحرق مراكبه كما تقول الأسطورة.. ولا أعتقد أن بحاراً أبداً يحرق مراكبه وحتى خطبته العصماء يقال أيضاً إنها أسطورة كتبها منتصر.. وإلا كيف نفسر تلك الخطبة لبربري حديث عهد باللغة العربية والإسلام..؟ ولكن هذا لا يهم لا يهم التأريخ يكتبه المنتصر وكل التأريخ إما ملفق أو منسي أو منتقي.. وهذا ما يحدث في كل الأزمنة.

وهبطنا مدينة الجزيرات الأسبانية واستأجرنا سيارة فيات حمراء صغيرة ومضينا بمحاذاة الساحل الجنوبي للمتوسط وعبرنا مدناً (كملقا ومربيا والمرية وتريمنوليس والرندة) وذلك الساحل الدافئ الموشّى بالنخيل وأشجار البرتقال ونسمات بر أفريقيا.

لم أكن أبداً يوماً مسكونا بهاجس التاريخ.. وأنا أتقفى خطى طارق ولكني كنت آمل أن أرى كيف التقى الشرق بالغرب.. كيف التقى محمد بعيسى وكيف هي الأرض التي كانت الأندلس وغدت الفردوس المفتقد. وعندما كنت أعبر المضيق كنت أحاول أيضاً تصور العابرين من الشمال غزاة يبحثون عن الثروة والثراء والعابرين من الجنوب الباحثين عن الرغيف والغد والمستقبل والعابرين مثلي بلا هدف. لكن أفريقيا ونسمات أفريقيا كانت تتوارى كلما أوغلت

في برد الشمال وتغدو أوروبا أكثر وضوحاً بمباهجها وجمالها وحضارتها ورقصات الفلامنجو ومهرجانات أعياد الميلاد ورأس السنة وأفواج السياح الهاربة من الصقيع ولم يبق من أفريقيا سوى وجوه سمراء في الشوارع الخلفية وجوه نجحت في الوصول عبر قوارب الموت وها هي هنا تبيع كل شيء يساعدها على احتمال الحياة.

كل شيء جميل هنا لكني كنت أفتش عن الأندلس التي في ذاكرتي ولم أرَ سوى منتجعات على المتوسط ونخيل غريبة ولم يكن هناك أثر للحضارة العربية ولا شواهد لتاريخ ثمانمائة عام من الخلود.

وتركنا الشاطئ واتجهنا للداخل إلى غرناطة، آخر معاقل الحضارة العربية الزائلة وفي الطريق إلى غرناطة بدأت الشواهد هنا وهناك تتوالى، فهناك بقايا مآذن لمساجد لم تعد مساجد وقلاع تحمل سحنات عربية وحتى التراب كان شبيها بالبر المغربي ولكن السماء هي السماء في كل مكان. كنت أحاول عبثاً استرجاع ذاكرة التاريخ.. واسترجاع الوجوه العربية قبل أربعة عشر قرناً.. والقبائل العربية اليمانية قبل أربعة عشر قرناً والتاريخ قبل أربعة عشر قرناً.. كنت عاجزاً عن تجاوز ونسيان أن حضارة عربية كانت هنا وأن أسماءً عربية كان يناديي بها هنا وأن الأرض هنا كانت عربية وأنَّ الأذان كان يصدح هنا خمس مرات ولمدة ثمانمائة سنة.. لكن

الأرض كانت صامته وتنطق بالحياد وأجراس الكنائس تقرع ذاكرة المكان كأنها كانت تدعوني أن أفيق من الحلم.. والتاريخ سفر مقفل وما كتب قد كتب وانتهى.

ودخلنا غرناطة.. وسكنًا قريباً من قصر الحمراء قريباً من الصفحة الأخيرة في الكتاب العربي الدارس (ولا غالب إلا الله).

وتجولنا في أسواقها وأحيائها وذهبنا إلى قصر الحمراء وحدائق جنة العريف وحي البيّازين (الصقارين) كنت أبحث عن أبناء وبنات عمي كان كل شيء عربياً.. المكان والسماء وهامات النخيل.. والحرف العربي وحتى تقاسيم الوجوه الجميلة.. ولكن لا صوت ولا نداء غير ذاكرة الحجر (ولا غالب إلا الله) منقوشة في ما تبقى من الصخر هناك وهناك.

تجولنا في جنبات قصر الحمراء رأينا الأسود التي تنفث الماء في باحة الأسود ودخلنا جناح الحريم كنت أفتش عن عائشة التي قالت لولدها عبدالله الصغير آخر ملوك بني الأحمر وهو يوقع وثيقة الذل ويبكي حين قالت له: (كالنساء تبكي مُلكاً لم تحافظ عليه كالرجال). قصر الحمراء قصة من الندم ودموع من الحجر (ولا غالب إلا الله لا غالب إلا الله). وذهبنا شرقاً إلى مكان زفرة العربي الأخيرة.. قبل أن يرحل إلى البر الإفريقي.. كان مكاناً ككل الأمكنة

ولكنه كان مثقلاً بانكسار اللحظة، لحظة التحول وانطفاء آخر قناديل الشمس العربية في تلك الأرض التي لم تعد بعد ذلك عربية.

وصعدنا جبال البشرات التي كانت تغذي غرناطة وحدائق جنات العريف بالماء، وكانت هناك لم تتبدل لكنها لم تعد جبال البشرات غدت جبال (سيرا نيفادا) حيث المساحات اللانهائية من البياض، بياض الثلج الساطع تحت الشمس وهواة التزلج على الثلج وهبطنا ورحلنا شمالاً إلى قرطبة قرطبة قصة أخرى وأقمنا قريباً من الحي العربي الذي أعلنته اليونسكو إرثاً إنسانياً وتاريخياً وتجولنا في تلك الأزقة الصغيرة المتقاربة كأزقة فاس والرباط القديمة وكان ابن ميمون اليهودي حاضراً هناك بتمثاله وربما ليدلل أن سر تلك الحضارة العربية كان في قبولها للأخر كانت حضارة التسامح.

ودخلنا جامع قرطبة.. (ياالله) ليتنا لم ندخل كان بهياً وجميلاً رغم الفقدان وكنت أتطلع إلى القباب والأروقة والأقواس الحمراء كنت أنتظر أن يرتفع الأذن في أية لحظة.. كنت أنتظر ولكنه تأخر تأخر ستمائة عام وربما لن يعود وتجولنا قليلاً داخل الجامع وكان هناك مذبح للكنيسة حشر داخل المسجد حيث لا مكان له أبداً.. لكنه وضع كدلالة انتصارٍ وتأكيدٍ أن هذا الجامع لم يعد جامعاً أبداً وإنما هو إرث حضاري ومبنىً تأريخي ولا أكثر وتأكد لي أن الأذان

لن يرفع ولن يسمح لي بالصلاة إن أردت فانا مجرد سائح لا أكثر حتى إن كنت من أحفاد تلك القبائل اليمانية التي كانت هنا.

وعرفت من الدليل أن الصلاة لا يسمح بها في المسجد وأنه سمح فقط للشاعر الباكستاني محمد إقبال أن يصلي فيه ركعتين كتكريم له وأن هذا المسجد الذي يصدح فيه الأذان لثمانمائة سنة.. لم يعد أكثر من مزار سياحي ولم يعد جامعة أوربا عندما كانت قرطبة عاصمة العلم والعالم، ولم يعد هناك غير جرس الذكرى تردده همهمات نهر الوادي الكبير.. وبقايا ضحكات ولادة الماجنة التي كانت تعطي كما قالت قبلتها لمن يشتهيها وتنهدات ابن زيدون المهجور والمتذلل والذي عجزت مراكب قصائده أن تبلغه شواطئ حبها بعد أن تلاشى الحب ولم يبقى لنا نحن أحفاده في الهجران سوى نونيته الشهيرة.. وقصة تتجدد كل يوم:

أضحى التنائي بديلاً عن تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ورحلنا إلى أشبيلية حاضرة ملوك بني عباد ولكن لم أرَ من آثار هناك للعرب سوى ما تبقى في المتاحف ومئذنة جامعها الكبير التي غدت تسمى (الجيرالدا) أو (الخيرالدا) وربما تعني الخالدة.. لا أدري؟ ولكن لا يهم لا يهم.. وأبحرت في نهر الوادي الكبير.. كنت أسترجع قصة أم البنين اعتماد الرميكية التي رآها أول من رآها

هناك الخليفة.. المعتمد ابن عباد بين صويحباتها تملأ جرتها من ضفة هذا النهر وكان قد قال لرفيقه الشاعر ابن عمار بعد أن رأى تكسرات الماء على صفحة النهر:

صنع الريح من الماء زرد..؟

وسكت ابن عمار يفتش عن تكملة للبيت.. ولم يكن من تلك الحسناء إلا أن أكملت وقد زرعتها الصدفة هناك:

أي درع لقتال لو جمدَ.

وأعجب بها الخليفة.. وتزوجها وأعتقها وأحبها ودللها وزرع لها كل المروج غابات لوز ليزهر زهراً أبيضَ عندما اشتاقت لبياض الثلج في موطنها وعجن لها كل مسك وكافور وبخور اشبيلية بماء ورد اشبيلية عندما اشتهت أن تغوص قدماها في الطين طين من الدلال.. طين عجن من طيبات الأندلس ومن عرق الفقراء أيضاً. وتقول الروايات أنها غضبت منه ذات يوم وقالت له بدلال النساء: والله ما رأيت منك يوماً خيراً فقال لها ولا حتى يوم الطين..؟ فخجلت.

ودالت دولة بني عباد كما دالت دولة الأندلس هاجمها ابن تشافين من دولة المرابطين من البر المغربي أو الأفريقي وأسر اعتماد هي وزوجها وقتل اثنين من أبنائها ونفيت العائلة إلى سجن (أغمات) وظلت هي وبناتها يعملن كمستخدمات بعد أن كن

ملكات ولا يجدن ما يأكلن أو يلبسن في يوم العيد فقالت تخاطب زوجها الأسير وتعاتب الزمن:

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا

فساءك العيدُ في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمارِ جائعة

يغزلن للناس لا يملكنَ قطميرا

برزن نحوك للتسليمِ خاشعةً

أبصارُهن حسيراتٍ مكاسيرا

يطأنَ في الطين والأقدام حافية

كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

لكن ذلك الزمن أصبح في بطون الكتب والتحقت اسبانيا بأوروبا ومضى العرب نحو الشتات ولم يعد لنا نحن سوى الرحيل من الأندلس، وغادرنا نحو الساحل المتوسطي مرةً أخرى نحو ماربيا حيث احتفلنا مع الكثيرين بحفلة رأس السنة كفرح مباح وليس عيداً يحتفى به وعدنا من حيث ابتدأنا عدنا نعبر المضيق مرةً أخرى إلى الرباط ثم جدة لا لنبقى ولكن لسفر آخر لرحيل أبداً ما كان مقدراً ولكنه كان.

جاري سعادة السفير

كنت فد تقدمت بترشيحي للالتحاق بجامعة الدفاع الوطنية في دولة الباكستان.. وكنت على يقين أني أبعث بترشيحي للقبر.. لكني فعلت.

للالتحاق بهذه الجامعة شروط معينة لعل من أبرزها الحصول على دورة القيادة والأركان واجتياز اختبارات اللغة الانجليزية بدرجة معينة وأن أكون قد أمضيت في الميدان عشرين عاماً.. والميدان للقوات البحرية هو العمل في البحر.. ولم أكن قد عملت في غير البحر عدا فترات الدورات وأن تكون مرشحاً لمناصب قيادية.. وشروط أخرى وكلها تنطبق عليَّ.. لكني كنت أعرف أن هناك شروطاً أخرى غير معلنة ربما قد تتدخل إذا ما زاد العدد وحمي وطيس التنافس كالواسطة والمجاملة والقرب من صناع القرار وإذا ما كننت ولداً مطيعاً وأعترف أني أبداً لم أكن يوماً ذلك الولد كنت وما زلت الولد الشقي غير أني أعتقد أني لست الولد السيئ بأي حال.

كنت قد نسيت طلب الترشيح غير أني فوجئت ذات يوم بهاتف

من الرياض يؤكد عليّ أن أستعد للسفر عاجلاً إلى إسلام آباد.. فالدورة قد بدأت ولم يعد سواي.

إذن مرة أخرى يبتسم لي الحظ ويقف إلى جانبي القدر لأن الذين أنطبقت عليهم الشروط وهم قلة لكنها لا تفضل باكستان تفضل آفاقاً أجمل وليست كمثلي كنت وما زلت أرى في باكستان واحداً من البلاد الجميلة والغنية والقريبة مني.

وتركت لوفاء إنهاء التجهيزات العائلية وسافرت سريعاً على أن تلحق بي متى ما رتبت جبهتنا الداخلية الصغيرة على أية حال.

جامعة الدفاع ليست عسكرية محضة إنها تُعنى بالشأن الإستراتيجي والأمن الوطني إن صحت التسمية.. وهي دورة يلتحق بها كبار الضباط وأصحاب المراتب الممتازة من (المدنيين) من صناع القرار في بلدانهم.. لأنها تناقش الشأن السياسي والعسكري والاقتصادي وتداخلاتها وكيفية تسخير كل المواد الوطنية أثناء الكوارث والحروب. كما أنها تناقش تعريف عناصر القوة الوطنية ومفهوم الأمن الوطني بمجمله والرؤية القريبة والبعيدة للدول وأشياء ربما لا يتسع المجال لها هنا وهي أعلى تأهيل عسكري يحصل عليه الضابط في حياته.

وهكذا وجدتني طالباً على مقاعد التلمذة مرة أخرى في إسلام أباد.. برفقة قادة فيالق وأساطيل بحرية وسفراء ووكلاء وزارات

وجنسيات من ثلاث عشرة دولة من ضمنها الولايات المتحدة وإيران. ونظام الدراسة يعتمد نظام المحاضرات وحلقات النقاش أو ما يسمى بالعصف الذهني (Brain Storming) إضافة إلى أبحاث وألعاب حرب (War games) وزيارات ميدانية داخلية وخارجية. وكان المحاضرون هم كل رجالات الدولة بدءاً من الرئيس وانتهاء بالسفراء والوزراء والمفكرين وبروفسورات الجامعات.. وقد وقف الرئيس برويز مشرف ذات يوم محاضراً وطرحنا عليه أسئلة بعضها محرج وذو خطوط حمراء.. لكن سقف الحرية داخل الجامعة عالٍ وعالٍ جداً.

استوطنت سكناً مؤقتاً داخل الجامعة.. وهو سكن جيد.. غير أني كنت أفضل دائماً الحياة وسط الناس وفي المدينة وليس داخل الأسوار العسكرية.. ووجدت جزءاً من فيلا مفروشة تسكنها مطلقة جميلة تعيش مع طفليها ووالدها أحياناً (لا يذهب تفكيركم بعيداً.. دينا السيدة الكشميرية سيدة محترمة جداً يشهد الله وجميلة أيضاً).. واستأجرت سيارة بسائق.. فأنا لا أحب القيادة بالمجمل خاصة عندما يكون مقبض القيادة في اليمين. ووصلت وفاء وأسكنتها كدلالة ترحيب في فندق الماريوت.. هذا الفندق الذي تطايرت أشلاؤه ذات يوم أمام عدسات العالم بفعل الإرهاب وبدأنا بنقل أمتعتنا للسكن الجديد جيراناً للسيدة دينا وطفليها الصغيرين.

أتذكر اني كنت أخرج الملابس وباقي المستلزمات من سكني

المؤقت عندما استوقفني مشهد غريب على شاشة التلفزيون.. كانت هناك طائرة تصطدم ببرج التجارة العالمي.. وتوقفَت وجلست على الأرض.. كنت أظن المشهد سينمائيا لا أكثر.. لكن طائرة أخرى اصطدمت بالبرج وتأكد لي أن حدثاً جللاً يتشكل وكانت مذيعة قناة الجزيرة المرتبكة تنقل هول القيامة حياً على الهواء. وجلست أتابع بقية الأحداث التي غيرت وجه العالم.. أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

واستقر بنا المقام في مدينة إسلام آباد الجميلة.. المدينة الرابضة على تلال (مرقلا) التي تصعد شمالاً لتغدو جبال الهملايا حيث تتقاطع مع جبال هندكوش وجبال كركوم الصعبة والمنسية في سقف العالم.. كما تتقاطع في باكستان حضارات وأديان وقبائل وتراث مثقل بإرث التاريخ وقسوة الجغرافيا وتجافي المذاهب والأعراق وفقدان التسامح وكنت أعرف أن أياماً صعبة تنتظر باكستان بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.. فقد أعلنت أمريكا مساء ذلك اليوم الحرب على الإرهاب.. وأعلنت أن لا مكان للحياد.. إما معنا أو ضدنا وأعلنت إما أن تُسَلم أفغانستان ابن لادن أو تواجه الحرب. وصداقة أمريكا خطرة.. لكن عداءها مميت كما يقول كسنجر وكان رد طالبان واضحاً: لا لن نسلم ابن لادن بدون دليل.

كانت باكستان الدولة الوحيدة التي تعترف بإمارة طالبان

الإسلامية. وكانت السعودية قد اعترفت بها ثم عدلت عن ذلك بعد أن رفضت الإمارة (طالبان) تسليم أسامة بن لادن وغدى موقف باكستان صعباً وحرجاً بعد أن وقفت الهند بوضوح بجانب الولايات المتحدة.

وكان منزلي قريباً من منزل سفير أفغانستان في إسلام آباد.. الملا عبد السلام ضعيف.. وكنت أنعم بالحراسة من القائمين على حراسة منزله وسفارته ولو من بعيد.

ولم تكن باكستان تدري ماذا تفعل في ظرف كهذا.. فهي من صنعت طالبان واعترفت بها وكيف تتخلى عنها دون أن تحدث ثورة شعبية تطيح بالحكومة وتزرع الفوضى..؟

وكان الرئيس بوش يعيد ما قاله: اختاروا هل أنتم معنا أو ضدنا..؟

وكانت الجماعات الإسلامية القوية داخل باكستان تنادي بالوقوف ضد الشيطان الأكبر.. أمريكا وكان القادة والساسة العسكريون في باكستان يفترضون جميع الخيارات والفرضيات والتصورات.

وطُلب منا ـ نحن الطلاب الأجانب ـ أن نكتب تصوراً لما قد يكون أن يحدث وما الذي يجب أن تفعله باكستان وفعلنا.. وكتب كل منا تصوره.. وقدمت أنا ورقة بيضاء لأني ببساطة لا أعرف ما

الذي يجب أن تفعله باكستان..؟ هل تقف مع ما يسمى الحرب على الإرهاب وما هي تبعاته..؟ أو ترفض وما هي تبعات هذا الرفض..؟ وكانت الهند جارة باكستان اللدودة سعيدة بما حدث وما قد يحدث وأعلنت أنها مع الحرب على الإرهاب.. ووضعت كل تسهيلاتها تحت تصرف الولايات المتحدة وحلفائها في الحرب على الإرهاب. وتغلبت لدى باكستان غريزة البقاء.. وأعلنت أنها مع الحرب على الإرهاب.. وذلك يعني أنها مع الحرب ضد صنيعتها حكومة طالبان في أفغانستان.. وبدأت طبول الحرب.. وانتشرت الشائعات والأقاويل وتتالي وصول الصحافيين والمراسلين من كل دول العالم.

وصدرت الأوامر من قبل السفارة السعودية بإخلاء جميع العائلات السعودية.. وكانت الجالية السعودية في إسلام آباد واحدة من أكبر الجاليات. وغادرت وفاء مرة أخرى إلى السعودية وبقيت أنا للدراسة كما هو مفترض.

وعندما عدت إلى منزلي ذات مساء وجدت أن الحراسة التي تحرس سفارة أفغانستان قد أزيلت وعلم أفغانستان قد أنزل.. لكن سفير أفغانستان عبد السلام ضعيف بقي يذهب للصلاة كما كان يفعل ولكن دون حراسة.

وأخيراً إندلعت الحرب واختفى عبد السلام ضعيف ولم يظهر

إلا بعد عامين في معتقل جوانتاموا ويعلم الله أنه كان رجلاً طيباً وكان يخدم بلاده بنقاء مطلق وصدق.. وقد أفرج عنه وعاد إلى بلاده وهو اليوم مواطن أفغاني.

وأستطالت الحرب التي تعرفونها.. حرب إسقاط إمارة طالبان.. الحرب على الأرهاب الحرب التي استمِرت إلى اليوم وما زالت.. وسقطت طالبان لكنها لم تنتهي بل غدا هناك طالبان باكستان وطالبان أفغانستان.. ولم يعد التهديد هو أسامة بن لادن الذي قتل بغارة أمريكية بل غدت شبكة القاعدة بفكرها وتنظيمها تمتد عبر أرجاء المعمورة.

وعندما تأكد لنا أن لا خطر علينا ولا على عائلاتنا.. وكنت بصدد استدعاء وفاء مرة أخرى إلى إسلام أباد لكن السيد الموت عاد مرة آخرى لينشر عباءته وليؤكد أن الحياة ميلاد وفقد. وتوفي هذه المرة صديقي الشيخ عبدالله العامودي والد وفاء.. وكان رجلاً طيباً ومثقفاً جميلاً وناصرياً حتى النخاع ولم يورث أولاده شيئاً من ثقافته وقوميته وحبه المطلق للحياة وقد فقدته كصديق غير قابل للتعويض ولبست وفاء ثوب الحداد.

وتوفي أيضاً ابن أخي محمد.. وكان حضور الموت طاغياً داخل الأسرة لأن الفجيعة حلت دون مقدمات وكانت كل العزاءات

غير قابلة للاستعمال لأن محمداً كان شاباً ينهد للعشرين بفرح غير مشروط وبابتسامة مكسورة كهلال حزين.

ومضى محمد في ليل موحش.. مخلفاً الحياة دون أن يفهم أو نفهم نحن لماذا جاء إذا كان سيمضي هكذا كشهاب ويحترق؟ مضى محمد وترك لنا الأسئلة الحارقة ورمى في وجه الحياة قفازه الصغير ومضى.

وستمر ملايين السنوات والسنوات قبل أن يعبر طيف آخر كطيفك يا محمد.. وسوف تمر ملايين أخرى قبل أن يطرق بابها وجهاً كوجهك وجهاً ممهور بالبراءة والدهشة والضحكة البكر وحب الحياة.

وإن حياة لفظتك هكذا دون كبير عناء ستبقى فقيرة دون دفاعات.. وغير جديرة حتى بعلامة إستفهام.

وأخذت إجازة قصيرة وعدت للمملكة.

الثوار يقصفون طائرتنا

عدت إلى جدة.. وكانت وفاء ترمم أحزانها وتعيد ترتيب أركان حياتها.. والموت كالميلاد يعيد تشكيل الحياة والناس وموقعنا من هذا العالم.. الفقد كالميلاد يصنعنا من جديد ويظل فقد الأب للأنثى كسقوط مجرة في سديم لا نهائي وانتظار مجهول تعيد تشكيلة الحياة من جديد. ويممت شطر الجنوب أعزي أخي حسين هذا الأخ الذي تشاطرت معه نهدة الصبا والأحلام والسنين الخضر ومنه تعلمت اكتشاف مفاتح الجسد وأول المزامير في قاموس العشق.. وقراءة لغة السحاب ووشوشات الريح وأسرار الطين وما يتلى من ليل القرى. ووجدته مكلوماً لكنه يتصبر كأنه كان ينتظر هذا الفقد فقط ليسمو ويستأنف الحياة.. وقد فعل.

وعدت إلى باكستان وحدي.. أستأنف ما تبقى من الدراسة.. وما تبقى في مجملة زيارات لمناطق باكستان ومعسكرات للجيش وزيارة أخرى خارج باكستان. كنا قد زرنا لاهور المدينة الأسطورة وعاصمة إقليم البنجاب قبل وبعد التقسيم.. وإحدى حواضر الدولة المغولية العظيمة.. وبها ما تبقى من حدائق شاليمار الأسطورية

وقصور المهراجات وبها أيضاً مسجد بدا شاهي العظيم أكبر المساجد قبل توسعة المسجد الحرام والذي يحتوي بداخله ضريح الشاعر الصوفي الباكستاني الكبير محمد إقبال.

وزرت وضمن وفد الجامعة أيضاً إقليم بلوشستان وعاصمته «كويتَا» والذي يتشاطر مع أفغانستان الجغرافيا والعرق والابتهاج بثقافة الموت وكانت قندهار قريبة منا وعلى مرمى عمامة حيث الاعتزاز بالعمامة واللحية والتطرف ووئد النساء ونبذ ما عداه..وانتهينا جنوباً بميناء «جوادر» على بحر العرب الذي كان أرضاً عمانية حتى أعادها السلطان العماني لباكستان في عام ١٩٥٨م. وصعدنا شمالاً لذلك الجزء المحاذي للصين والقريب جداً من سقف العالم هنا تبدو السماء قريبة تكاد تُلمس باليد والهواء شحيحاً حتى نكاد نتبادل التنفس حتى لا يُستنفذ الأكسجين هنا فقط الريح والغيم والثلج وتواضع الإنسان طائعاً دون منة أو كبرياء.

ويقولون إنه منذ ستمائة عام عبرالرحالة الأيطالي (ماركبولو) من هنا وعبر هذه الجبال العصية قادماً من البندقية وقاصداً الصين وباحثاً عن طريق الحرير.. هذا الطريق الذي لم يتبقَ منه غير الاسم وغزال جبلي يسمي غزال أو ماعز ماركوبولو (Marco Polo Sheep) النادر والذي يُربى بعضاً منه ليقتله بعض الشيوخ مع ما تبقى من طائر الحباري النادر في رحلات القنص السنوية رغم النداءات

المتكررة من جماعات الحفاظ على البيئة..غير أن خمسة وعشرين ألف دولار تدفع مقابل اصطياد الرأس الواحد كافية لإخراس أي صوت احتجاج.. هكذا قالوا لنا هنا لكني لا أجزم ولا أنفي ما سمعت.

وهنا أعلى مسرح حرب في العالم في مرتفعات (قلقت) حيث تواجهت باكستان والهند ووضع كل منهما إصبعه على الزر النووي وحبس العالم أنفاسه لولا تدخل أمريكا وأقلعت بنا الطائرة العسكرية إلى مناطق «قلقت وشترال» وكانت تتجول بين سلاسل الجبال ولم تكن لتقدر أن تطير فوقها وهبطنا في مطار يرتفع عن سطح البحر سبعة آلاف متر قريباً من «تورا بورا». أو الغيم الأسود بلغة أهل المنطقة

وهنا الجمال البكر والمدهش غير قابل للتصديق حيث لم تعبث يد الأنسان بالجداول والأنهار ومساقط المياة.

ورأيت في مكتبة الحاكم الإداري مخطوطات عربية لكني لا أدري إلى أية حقبة تنتمي.. ربما للدولة الغزنوية التي قدمت من بخارى ومضت بالإسلام حتى خليج البنقال عبر دولة المغول العظيمة.

وغير بعيد من ذلك توجد أعلى ثاني قمم العالم ارتفاعاً قمة

(2YK) قريباً من التبت حيث أعلى وأكبر الزلاجات الثلجية في العالم وأكثرها وحشة وضياعاً في هذا الكوكب.

وتجولنا بواسطة الطائرة العمودية في منطقة البحيرات المعلقة «سكاردو» حيث لا شيء سوى الريح والصمت وأرض بكر إلا من القلائل من الناس.. ومن خلال الطائرة الضائعة كريشة رأيت منابع نهر الأندس الشهير من سفوح الهملايا الذي شهد أقدم حضارة على وجه الأرض والذي يتهادى جنوباً لينتهي متعباً في بحر العرب.

هنا تحيا شعوب مختلفة بروح مختلفة يربون الماشية ويزرعون القليل من الزراعة والفواكه ويعتمدون على الخيل في كل شيء.. ويلعبون على ظهورها لعبة قريبة من لعبة البولو وسط موسيقى حزينة تردد أصداءها الجبال كلما أحرز أحد الفريقين هدفاً في فضاء الآخر.

وتعيش هنا طوائف من الشيعة وأخرى من الإسماعيلية.. وقليل من النقشبندية وأهل السنة أيضاً.

وإلى الشرق توجد الجنة الأخيرة على الأرض أرض الجبال والبحيرات وأجمل نساء الدنيا أرض كشمير والدليل الآخر والأبلغ على شغف الإنسان باختراع جحيمه وإدمان عذاباته واستعجاله يوم الحساب. فكشمير أرض مقسمة بين الهند وباكستان كما قسمت

البنقال الغربية والبنقال الشرقية..والبنجاب الغربي والشرقي.. والسند الغربي والشرقي.. وكشمير الهندية والباكستانية.. إنه بؤس الأديولوجيا ولؤم المستعمر الذي كان هنا.. والذي قبل أن يغادر زرع بذور الفتنة بين المسلمين والهندوس ورحل وغذاها الغباء والحقد والتاريخ والاعتزاز الأعمى باللاشيء.. قسَّم كل شيء ورسم خطاً من الوهم، وعبر هذا الخط الذي غدا الحد بين باكستان والهند هُجِّرت جماعات وقُتل ملايين من الناس وأحرقت قرى وضياع.. وتفرقت أجناس عاشت هنا منذ الأبدية تحدق في نفس السماء التي اقتتلت من أجلها.

وعندما وقفنا على الحدود بين باكستان والهند كنا نرى الأنهار تأتي من هناك من الشرق وتعبر كما كانت تعبر منذ الأزل نحو الغرب ولكن تحت أسلاك شائكة وكانت الطيور تعبر هنا وهناك.. وتعشعش وتغرد حيث شاءت في هذا الفضاء الفسيح الذي وسعها لكنه لم يتسع للأنسان.

وكنا نرى الناس على الجنبين أبناء عمومة وبسمات متطابقة ولكن بأصابع على الزناد.

وأزف السفر في رحلة خارج باكستان..رحلة تعليمية وقسمنا إلى صغيرة وكنت مع آخرين في مجموعة أختارت زيارسريلانكا واندونيسيا..

وفي سريلانكا اللؤلؤة الضائعة في المحيط يتكرر المشهد ذاته.. حرب بين شمال الجزيرة الصغيرة وجنوبها.. بين التاميل وبين السنهال.. وتجولنا بالطائرة العمودية في أحد أجمل الأماكن دهشة وفتنة.. وتعرضت طائرانا الصغيرة لقصف الثوار التاميل.. وانطلقت القذائف الحرارية التي تظلل الصواريخ وكنا قريباً جداً من الموت.. لكننا هبطنا بسلام وأكملنا الرحلة عبر الأدغال بالسيارات ونحن نحتفل بعمر كتب من جديد.

أمضينا هناك سبعة أيام، تجولنا في أكثر المعابد الهندوسية بذخاً وغني..ورأينا أجمل شواطئ النخيل في هذا العالم وتلال الشاي السيلاني الشهير والبقية الطليقة من الفيلة التي تكاد تنقرض. وزرنا كاندي حيث تقول الأسطورة إن آدم هبط فيها.. وتذكرت الشاعر سامي الباردودي الذي نفاه الإنجليز إلى هنا لمدة ثمانية عشر عاماً إلى سرنديب ـ كما كان يسميها العرب ـ والتي غدت سيلان ثم سريلنكا. وهنا هاجمه الحنين إلى مصر وإلى سميرة زوجته التي لابد أن تكون جميلة والتي أنشد فيها قصيدته الشهيرة:

تأوب طيب من سميرة زائر   وما الطيف إلا ما تريه الخواطر

وتذكرت هنا دكان أبي الصغير الذي كان أصدقاؤه المتعبون يسهرون على ضوء فانوسه الشحيح ويستمعون إلى صوت الراديو وهو يبث مضارب البادية وصوت العرب وهتافات عبد الناصر الذي

أبداً لم نكن نحبه في جازان لأنه قصف جازان وقرى آخرى عندما كانت طائرات الميج ١٧ تتعقب الإمام البدر وتقصفنا أيضاً لأننا وقفنا مع الملكية ضد الثورة لكن الإمام محمد البدر شق طريقه شمالاً إلى الطائف حيث عاش ومات يبحث عن ملك لم يسترد.

وتذكرت ضمن مقتنيات دكان أبي الشحيحة صندوقاً من الخشب المبطن بالقصدير والمغطى بالخيش والمكتوب عليه: شاهي سيلاني.. وكبرنا.. وكبرت الدنيا من حولنا.. وشاهدنا وشربنا مئة نوع من الشاي.. ولكن ذلك الشاي السيلاني الذي كنا نشربه بعد الغداء وتتحلق حوله كل العائلة لا شبيه لطعمه أبداً.. تذكرته هنا بين مزارع الشاي في كاندي ورأيت كيف يقطف الشاي ثم يجفف ويصنف ويغلف.. ورأيت العاملات الفقيرات وهن يحملن سلال الشاهي الأخضر.. تذكرت الطعم القديم والزمن القديم وتذكرت وجوهاً حميمة غيبتها الحياة.. ولكن كان بيني وبين ذلك العهد زمناً قصياً وبيني وبين القمري ثمانية آلاف كيلو متر.. وغياب آخر نحو الشمس.. نحو إندونيسيا أرض الخمسة عشر آلاف جزيرة التي لا نعرف شيئاً كثيراً عن عظمتها لأننا لا نحدق أبعد من مواطئ أقدامنا وعقولنا الحافية.

في الشتات

وصلنا جاكرتا عبر كولمبو كان الوقت أصيلاً ونحن نحلق فوق أرخبيل الملايو ومضيق ملقا جزر خضراء ضائعة في بحر من الزرقة الخالد.. جزر يجللها الغيم وتباركها السماوات ويعم أرجاءها سلام وربما لن يدوم طويلاً بعد أن وصلتها بذور التطرف والمذهبية ووصاية وكلاء السماء ووصلنا جاكرتا لؤلؤة جزيرة جاوه وعاصمة هذا الأرخبيل الكبير.

أمضينا بها أياماً رائعة وانتهت رحلتنا في جزيرة بالي.. ثم تفرقنا كوفد وغادر من غادر وبقي هناك من بقي في تلك الجنة الاستوائية وسافرت أنا إلى البلد الذي أدمنت حبه وزرته كثيراً بلد الكبرياء ماليزيا.. هذا البلد الذي تعلم كيف يصنع كبرياءه ويصنع مجده وحيداً دون عون أو ضجيج، وها هي اليوم ماليزيا نمر آسيوي أصيل يكذِّب كل نظريات المؤامرة والبحث عن أعذار يركن إليها حكام هذه المنطقة من العالم. كنت قد زرت ماليزيا قبل خمسة وعشرين عاماً وبقيت أزورها كل عام تقريباً وعاصرتها وهي تتحول من بلد استوائي ضائع في غاباته إلى بلد يمضي بثبات وإصرار

وسط حفاظ عجيب على كل مكوناته الحضارية والثقافية وتنوعه العرقي.. لأنه أراد ذلك وآمن بذاته وعمل عليه دون شعارات أو تفضيل للون أو جنس أو عرق أو دين رغم تعدد أعراقه وطوائفه وأديانه.. وهاهي ماليزيا دولة إسلامية مشرقة نفخر بها غير أننا نحجم عن استنساخ تجربتها وهي حية وبسيطة ودامغة وتركيبتها سهلة جداً (رؤية + قيادة + هدف) فقط لكن قادتنا يفتشون عن حلول يعرفون قبل غيرهم أنها سراب بقيعة.

وأمضيت بها أياماً عدة وعدت إلى باكستان وانتهت الدورة وحصلت على شهادة ماجستير أخرى في (استراتيجيات الدفاع)، ثم عدت إلى جدة.. وكان قرار النقل إلى الرياض إلى قيادة القوات البحرية ينتظرني.

سأعترف هنا أنه وربما إحدى نقاط ضعفي الكثيرة هو أنني أصنع ألفة مع المكان.. ومع الأشياء المحيطة بي.. فقد أمضيت عشرين عاماً وأكثر في جدة حتى خَفَت داخلي الحنين إلى القرية.. وتشربت حب جدة كل ذلك المدى حتى غدت هي أيضاً وطناً آخر.. وصنعت ألفة مع الأسماء والشوارع والأصدقاء والطقس ولون السماء في الصباح وطرقات وحواري جدة القديمة ورواشينها حتى أكاد أقول أني حفظت أسماء كل زقاق بها وها هو اليوم يتوجب علي أن أغادرها إلى الرياض لأبدأ حياة أخرى وأخلق فضاءً آخر ولكن هل يسمح العمر بالبدء من جديد..؟.

واكتشفت شيئاً آخر كنت نسيته خلال الركض شرقاً وغرباً وهو أني بلا مأوى بلا سكن أعني دون بيت.. واكتشفت أن المنزل الذي بقينا نشغله كل هذا العمر هو مسكن حكومي يتوجب علينا إخلاؤه واجتثاث كل الذكريات الجميلة التي تشكلت على جدرانه وزواياه خلال ما تصرم من العمر.. والمنازل عندما نشغلها لا تغدو أسقفاً وجدراناً فقط إنها تغدو شيئاً منا نعلق على جدرانها تقاويم العمر ونزرع في زواياها ضحكاتنا وفرحنا وحزننا وما هو أعمق المنزل هو الرحم الأكبر الذي نحتمي به من الخارج القاسي.

وكان الرحيل على وفاء أشد قسوة، النساء يبحثن دوماً عن الأمان والسكون وعقد صداقة حميمة مع أشيائهم الصغيرة وأشياء المرأة الصغيرة هي أشياؤها الكبيرة.. هكذا قال طاغور الشاعر الهندي العظيم والحائز الأول على نوبل.

وكان ذلك يعني أننا سنقذف بكل هذه الذكريات للعدم ونمضي دون ذاكرة.

وآليت على نفسي ألا أكرر هذا التشظي أبداً فهناك عُمرٌ لبدء الحياة وآخر للركض، وهناك عُمرٌ للاستمتاع بالحياة كل صباح دون منغصات ومنه نراقب الحياة ونتأملها ونقرأ كتبنا التي لم نقرأ ونسافر البلاد التي لم نر ونحدق في الصور والذكريات التي جمعتنا ونتذوق الحصاد حصاد الركض الطويل هكذا أظن أليس كذلك؟

وبدأنا البحث عن منزل يكون هو المكان الذي نحط فيه الرحلة حتى آخر العمر مسكن صغير نضع فيه أشياءنا ونحن نعرف أنها ستبقى هنا وأن مكتبتي ستبقى هنا وأن الشجرة التي سأزرعها سوف تبقى وأن الأشياء الصغيرة والحميمة التي جمعناها من كل زوايا الدنيا الأربعة ستأخذ هي أيضاً أماكنها دون أن نفترق.

وغادرت الرياض على عجل وأوقفنا البحث عن مسكن.. لأننا اكتشفنا أن كل المنازل التي وجدناها بعيدة جداً عن المنزل الصغير الذي في خيالنا.. أوقفنا البحث عن المنزل مؤقتاً ريثما نقرر ما نفعل وغادرت إلى الرياض لأتسلم عملي الجديد ثم يقضي الرب أمراً كان مفعولا.

وقصدت الرياض هذه المرة عن طريق الصحراء عبرت إليها من جدة إلى مكة ثم الطائف ودخلت بعدها جوف الصحراء الفسيح حيث لا شيء سوى الطريق والفراغ والصمت ومساحات التأمل.

منذ سنوات عديدة لم أعبر هذه المفازة واليوم أعبرها برؤى مختلفة وربما بمساحة من الحكمة ورسخها العمر والترحال ورؤية أشياء كثيرة في الحياة ولهذا أرى الصحراء اليوم برؤية أخرى.. كنت أفتش عن أقدام وأصوات الذين عبروا من هنا البدو الرحل وقطاع الطرق والغزاة والمحاربين والحجاج والسحاب الشحيح والجن والغيلان وجحيم وبرد وصمت الحياة.

وكنت أستنطق هذا الفراغ عَلَّه يروي ما رأى وحفظ لكن وجه الصحراء لا ينبئ عن شيء أو أنه لا شيء هنا عدا الحكايات القليلة التي حفظتها الكتب وتناقلها الرواة وزاد عليها المغالون في الحب أشياء من خيالهم لملء هذا الفراغ الكبير. ويبدو أن كل شيء عبر من هنا عدا الحضارة.. إن من يقول إن حضارة عبرت من هنا يخترع حكاية لا أكثر أي حضارة صنعت هنا؟ وأين إسهاماتها وماذا أبقت؟ الحضارة بقاء في المكان وهنا رحيل كان يتجدد كل غيمة.. ربما عبر من هنا غزاة ومحاربون ومغامرون وشعراء وأنبياء صادقون، وربما كاذبون ودجالون وطلاب غنيمة لا أكثر أما الحضارة فلم تكن هنا أبداً أبداً.

ووصلت الرياض عروس هذه الصحراء المتكبرة ومنذ الليلة الأولى تخاصمت معها ومن الليلة الأولى قررت أن أجعلها محطة لا أكثر لكن كثيرين قالوا لي فيما بعد أن الرياض تحب من يحبها فقط عليه أن ينتظر كثيراً وأن يعاني كثيراً ويتذلل ويدللها كثيراً ككل حكايات الحب في الصحراء وعندما تحبه تمنحه كل شيء ولا يبادل بها بعد ذلك حواضر الدنيا.. لكني لم أكن على استعداد لبدء قصة غرام جديدة.. وكل ما رأيته في الرياض منذ الليلة الأولى هو أنها مدينة قاسية وصامتة ومغلقة وفقيرة من الفرح والتسامح.

ولا أريد هنا أن أكرر ما قلته في مجموعتي القصصية (طائر الليل) أن المدن كالنساء.. لكنها حتماً كذلك، فقد وجدت مثلاً إن القاهرة

حنونة كأم ورأيت بيروت غامضة كعشيقة ووجدت الدار البيضاء غانية ومتبرجة وباريس صبية لا تعرف كيف تكبر لكنها تعرف كيف تضع الكحل وتتغنج، ولم أر في لندن سوى ثرية هزمها العمر فاحتمت بما تملك من ثروة وحلي غالية ورأيت نيويورك متسلطة.. ولكن ماذا أقول عن الرياض؟ سوى أنها متجبرة وقاسية وجافة وعنيدة مدينة لا تفضي إلى الماء ولا تلتقي بالماء وتعادي النساء وتجانف الفرح وتخاصم الغريب إنها فقط مدينة ملح كبيرة غير أنها تظل مدينة الكبرياء وعاصمتنا التي نفاخر بها حواضر العالم.

وحصلت على سكن حكومي بعد حين.. غير أننا جعلناه أنا ووفاء محطة لا أكثر وبدأنا من جديد رحلة بحث مضنية عن شراء مسكن في جدة بما لدينا من مدخرات وما حصلنا عليه من قروض ميسرة ومعسرة لكننا لم نجد ما نود وقررنا شراء أرض بيضاء وبناء منزل وبقلم الرصاص رسمنا منزلنا الصغير الذي حلمنا به معاً وبدأنا البناء.

وكم كان ذلك القرار أبداً غير حكيم في ظل غياب ضمائر الناس وضعف القوانين والأحتكام إلى القدرة على الكذب والتدليس والمماطله..لقد أخذ المنزل الصغير المفترض كل مدخرات العمر وأخذ معه وإلى غير رجعة الثقة المطلقة في الأيمان بصدق الأنسان وكان درساً مؤلما وبثمن قاس جاء في الزمان الخطأ.

المصلحة العامة

وبدأت العمل في الرياض كما لو أني موظف صغير حديث التعين رغم أني عقيد أمضى في العمل خمسة وعشرين عاماً وأخذ من التأهيل ما يأخذ أي ضابط محترف في أي بقعة من بقاع العالم وأكثر.

كان جل عملي السابق في الميدان في البحر وفي البحر ترى النجاح والفشل في حينه وتلمس ما أنجزت وما لم تنجز أما هنا وفي المكاتب وألأدارات فالوضع مختلف إنها فقط أوراق وتعاميم وأنظمة وحقائب سوداء ومصاعد تعلو وتهبط ومرايا وأروقة تلمع وكلمات خافتة هنا وهناك. وهنا أيضاً صراع مصالح وعلاقات خفية وقوانين أخرى غير مكتوبة وولاءات غير مرئية وحسابات سابقة ولاحقة وابتسامات لا تعرف ماذا خلفها وأعراف ومجاملات أجهلها ووجدتني أنا القادم من البحر وقبله من القرية أتخبط دون دليل داخل ثقافة الصحراء الصحراء التي تعادي الغريب وتقتسم الغنيمة وتتبادل أدوار المنفعة.

ووجدتني أصطدم منذ اليوم الأول بين ما أعرف وما تعلمت

وما يجب أن أفعل وهنا تأكد لي ما كنت قد سمعت عنه كثيراً وهي أن الكفاءة ليست المعيار الوحيد دائماً نعم هي ضرورية ولكن في المفاضلة يغدو للمناطقية واسم العائلة وثقافة (الاستراحات) دوراً أكبر وقانوناً غير مكتوب لكنه هو ما يؤثر يرجح في نهاية المطاف ولم أكن أنتمي لأحد إلا لذاتي ونظرياتي وثقافتي التي كونتها بصبر ودون منة من أحد ولم أنتسب لأي من (الاستراحات) التي يقضي فيها جل أهل الرياض مساءاتهم.. أو هي (ديوانياتهم) وكنت أيضاً مليئاً بالعناد. وعرفت هنا المعنى الصحيح للمصطلح الإداري الفريد الذي نستعمله كثيراً في حياتنا دون أن نفهمه كثيراً مصطلح (المصلحة العامة) وكم رأيت أشياء تتم هنا لأن المصلحة العامة أرادت ذلك.

مصطلح المصلحة العامة لا تنسوه.. لأنه لا يوجد إلا في ثقافتنا الإدارية ولأنه سيبقى في حياتنا كثيراً وسيلازمكم جل حياتكم وكم من الأشياء تمت ولا مسوغات قانونية لها عدا المصلحة العامة وكم من قوانين تم تجاوزها لأن المصلحة العامة أرادت ذلك المصلحة العامة تذكروه ولا تنسوه وصححوا لي إن وجدتموه في أي ثقافة أخرى بمعناه الأداري لدينا.

وبقيت أتنقل أسبوعياً تقريباً بين الرياض وجدة وأتابع بناء المنزل الذي يتقدم ويتعثر كثيراً واكتشفت أثناء البناء أن الصدق

أصبح مثلبة لا مزية في حياتنا وأنه غدا مرادفاً للغباء وأنا أكبر الأغبياء.

وكانت وفاء تأتي إلى الرياض أحياناً.. تمضي أسبوعاً أو أسبوعين ثم تعود أو نعود فالحياة هنا رتيبة مملة ونحن شخصان فقط ولسنا عائلة كبيرة نصنع عالمنا الخاص بنا فقط شخصان يحملان وحدتهما ويتجولان بها بين المطاعم والأسواق وداخل منزلنا الواسع الفقير من المعارف والأصدقاء.

وبعد عام وبثمن مضاعف انتهينا من المنزل الحلم.. منزلنا الصغير الذي نشغله الآن كقصر لن نبادل به الدنيا وحملنا ذكرياتنا وأشياءنا من بيتنا القديم الذي أمضينا فيه عشرين عاماً.

وانتقلنا كان الفراق مؤلماً وقاسياً ولكنها الحياة لا تعبر إلا على قطار الألم وكان العزاء أننا نتحول لبيتنا الصغير وشعرنا بالأمان ونحن ننام في منزلنا للمرة الأولى في الليلة الأولى رغم أن المكان كان يفتقد أشياء كثيرة.. لكنه كان لنا.. منزلنا عشنا.. هنا نستطيع أن نحفر على الجدران ما نشاء لتبقى.. هنا تلامس أقدامنا الأرض بثبات ودون خوف من الإحساس بالفقدان وهنا نحمل في أيدينا مفتاحاً هو لبابنا الذي نفتحه ونوصده ساعة نشاء.

وبقيت أتنقل بين جدة والرياض وجازان أيضاً حيث العائلة الكبيرة وأحسست بالتعب واشتدت الصراعات داخل العمل ولم

أكن على استعداد لتغير أي من قناعاتي لأقرأ مابين السطور وأتفهم ثقافة الصحراء وتناقشت مع وفاء ولم لا أقدم استقالتي..؟ فلدينا منزلنا وراتب تقاعدي يلبي ضروراتنا؟ وقالت ولكن ما الذي سيفعله شخص مثلك يقوم قبل الفجر كل يوم..؟ شخص إعتاد أن يهب كل روحه ووقته لعمله.. فكر ماذا ستفعل؟ وكنت أعرف أنه للأسئلة السهلة إجابات بسيطة لكنها خاطئة وتدخل القدر مرة آخرى ليؤجل إجابة هذه السوال عام آخر.

وفاء تتوج الأدميرال

نعم وماذا يفعل بكل الوقت شخص مثلي يصحو قبل الفجر بساعة أو بساعات نوم لم تتجاوز الساعات الخمس أبداً..؟ سأقرأ كتبي نعم.. سأكتب نعم.. سأسافر نعم.. ثم ماذا في مجتمع سكوني يفتقر للترفية عدا المجاملات الأجتماعية والبهجة عدا ما تزرعه الصدفة؟.

أن تتقاعد يعني أن لا تنتظر شيئاً من أحد لأنه لا أحد ينتظر منك شيئاً تقدمه له وليس لديك ما تبيعه للناس في مجتمع يقوم على المنفعة.. ولا نواد ولا أنشطة ولا مراكز أبحاث تقدم فيها خلاصة ما تعلمته في ثلث قرن وكم هو مؤلم بل معيب عندما ترى جنرالاً كان يقود الفيالق وقد إنزوى في مكتب عقار يرتل ما تبقى من أيامه.

ليست المعضلة أن أصحو قبل أو بعد الفجر.. المشكلة لي أيضاً أني ضائع بين زمنين ومكانين وفضاءين.. وأني ضائع بين نفسي ونفسي. فقد غادرت القرية منذ ثلاثين عاماً إلى فضاءات المدن.. وكل المعارف التي منحتها لي الأرض عادت لتأخذها لأني

نسيت كيف أستخدمها لو عدت.. قراءة السحاب.. اتجاهات الريح.. رائحة الأرض والاكتفاء بالقليل من الأشياء والقناعة وحتى الأصدقاء رفاق الطفولة ما عادوا.. ولا القرية أيضاً بقيت ولا شيء من ذلك الفضاء ولا أنا.. وكيف أعود لأربط عقدة انفرطت منذ الثلاثين عاماً..؟

وعجزت أيضاً أن أكون ابناً للمدن.. ولعل المدن حدقت في لون عيني وجفاف شفتي فما قبلتني ولا حتى بالتبني.. ولا منحتني بطاقة للسهر ولا تذكرة للأسواق ولا محطة للترجل ولم تعلمني كيف أتجمل أو أتلون كأبنائها وخذلتني وأبقتني كما كنت قروياً ضائعاً في المدينة يحمل عملة كعملة أهل الكهف.. تفضح ولا يُشترى بها شيئاً. وأصدقاء الحرف والكتاب والقلم الذين تقربت منهم ظلوا ينظرون إلي كعسكري يتجمل بالثقافة ويتزلف لساحة الفكر، ومنهم من ظن أني مدسوس داخلهم أي والله، والعسكر كانوا يرون فَّي مشروع كاتب ضلَّ طريقه لعش الدبابير. وكان لي اسمان..(عمر) للعمل والأوراق الرسمية و(عمرو) لأهلي وأحبتي وحرفي وكان لي فضائين وحتى أحلامي كانت مشطورة.. وكيف أعيد توحيد كل ذلك بعد أن أغادر البلدة..؟ كيف..؟ ولكن يجب أن أغادر.. فالتقاعد سيأتي سيأتي في مدن الملح أو على شواطئ الملح.. وعليَّ أنا أن أبدأ ترتيبات أبغض الحلال. وعدت أرمم العلاقات الإنسانية وليس الشخصية.. العلاقات الإنسانية تبقى وتدوم

أما الشخصية فتذهب مع الوظيفة والعمل وبريق البدلة وكنت أعرف هذا منذ البداية ورأيت الكثيرين الذين صدموا بعد أن انفضَّ عنهم الناس عندما تركوا الوظيفة أو الكرسي أو المنصب.

وعدت أقلب خياراتي.. وأستشير أصدقائي القدامى.. وكنت أعرف أني أنا وحدي من سيقفز أخيراً في الفراغ. ومرة أخرى تتدخل السماء لنجدتي.. وترشحت لدورة قصيرة في الولايات المتحدة مدتها ثلاثة أشهر.. وفي جامعتها الوطنية الدفاعية.. ووقع عليَّ الاختيار ولم تكن أكثر من إجازة طويلة مدفوعة التكاليف لأن المصلحة العامة رأت ذلك.. ولأنه جميل أن تكون قريباً من صناعة القرار. وبدأنا أنا ووفاء نستعد للسفر.. وأمريكا نعرفها جيداً.. لكن أمريكا التي سنذهب إليها هذه المرة هي أمريكا ما بعد الحادي عشر من سبتمبر.. أمريكا قائدة الحرب على الإرهاب ولن نعود السعوديين المدللين الذين كانت كل ذنوبهم مغفورة حتى في أمريكا.

وعبرنا المحيط مرة أخرى.. ومنذ الدخول إلى مطار نيويورك.. عرفنا أن أمريكا التي كانت مباحة لنا لم تعد كما كانت.. فهنا تفتيش وتصوير وتدقيق وتأخير وتعطيل وتفتيش شخصي عشوائي ثم أنتظار لساعات قبل أن نغادر إلى واشنطن.. ولكن ما إن دخلناها حتى عاد كل شيء إلى طبيعته.. غير أننا كنا نعرف أن تحركاتنا وهواتفنا وحساباتنا تحت الملاحظة والمراقبة والتدقيق. استقبلنا صديق حميم

هناك وكانت السيارة مستأجرة.. والفندق محجوز.. ولم يكن ذلك ممكناً من قبل.. لكنها المصلحة العامة لأني قادم من المركز وليس من الأطراف. وبعد ثلاثة أيام انطلقنا إلى ولاية فرجينيا القريبة.. إلى مدينة نورفولك التي نعرفها من قبل.. وكأننا نعود إلى بيتنا القديم.. وبقايا ذكرياتنا. ومرة أخرى تكون هناك شقة جميلة مستأجرة في مدينة بورت سمث (Port Smouth) القريبة من نورفولك وقريباً جداً من مستشفى البحرية الأمريكية الكبير حيث عملت وفاء كممرضة متطوعة لمدة ثلاث أشهر (ووفاء حاصلة على شهادة تمريض تخصص تغذية) وكانت تجربة غنية لها وحصلت على شهادة تقدير من الصليب الأحمر في هذا المجال وهي تعتز بهذه الشهادة.

كانت الدورة واسمها (العمليات المشتركة) تناقش كيفية عمل جميع القوات المختلفة برية وبحرية وجوية وقوات صديقة أو حليفة كوحدة واحدة في ميدان القتال.. وكانت تضم ضباطاً من الولايات المتحدة ومن أماكن أخرى من العالم من تشيلي إلى كوريا.. ومن لوتانيا إلى سريلانكا وقد قُسمنا إلى إحدى عشرة مجموعة (Seminar) وكل مجموعة تضم أثنى عشر دارساً وكنت ضمن المجموعة رقم أحد عشر وهم الأقدم رتباً وكنت الأجنبي الوحيد بينهم. وكان ضمن زملائي السيدة الجميلة المقدم جوي (إنقا) والعقيد البحري ميشل ذات الأصول الإفريقية. مضت الدورة كنزهة

جميلة.. وكانت في مجملها نقاشاً ومحاضرات وندوات ولقاءات وقد زرنا في الحلقة الجنرال (زيني) قائد القوات المركزية الأمريكية في ذلك الوقت.. وكانت النغمة السائدة هي الحرب على الإرهاب. وكان هناك محاضرات غير منهجية في مجالات شتى على هامش الدورة.. وقد إنتظمت في إحداها وكانت دراسة ونقاشاً عن الأسلام وقد بدأت المحاضرة الأولى وكان المحاضرون إما ضباطاً عسكريين أو متقاعدين أو مدنيين بدرجات علمية عليا وعندما بدأت المحاضرة طلب الدكتور من كل منا تقديم نفسه ولما اختار هذا الموضوع؟.

وقال أحدهم: اخترته لأني أريد أن أعرف عن دين أعدائي المسلمين.. آخر قال.. أريد أن أعرف لماذا المسلمون دمويون وأشرار.. آخرون قالوا إنهم يريدون أن يعرفوا عن الإسلام.. وعندما وصلني الدور قلت أنا من السعودية وأنا مسلم.. وران صمت على القاعة وكانت هذه المحاضرة الأسبوعية التي أنتظرها صراعاً بين أطياف وتوجهات.. وكل يدعم أقواله بأرقام وصور وأفلام وحقائق فالمكان علمي ولا مجال للإنشاء والعواطف. ولم أقف في موقف المدافع أو المهاجم ولكن في موقع المشاركة ضمن رؤيتي.. كنت واحداً في حلقة النقاش.. وأحسب أني أحدثت تغييراً.. فبعد شهرين سُئلت من قبل الدكتور المشرف إن كان من الممكن أن ألقي

محاضرة في كنيسة الحي الذي يسكن فيه؟ ووافقت سعيداً بشرط أن تكون شخصية وأن تحمل رؤيتي الذاتية كفرد وليس كضابط سعودي.

وذهبت ومعي وفاء وأختها آلاء وكانت قد انضمت إلينا كزائرة.. وقلت للحضور الذين توافدوا من الحي إن كل الأديان استخدمت لأغراض غير دينية.. وإن ما ترونه وتسمعونه اليوم ليس الإسلام النقي الأول.. لكنه الإسلام السياسي المفتقر للتسامح أساس كل الأديان.. ولهذا هناك إسلام سعودي وإيراني ومصري وماليزي وأفغاني.. وكلٌ يقتل باسم الرب ويدعي أنه يفعل ذلك بتوجيه من الرب ويفسر بأسم الرب ويدعي إمتلاك الحقيقة المطلقة ككل الأديان، وكانت المحاضرة جميلة فيما أحسب وكانت السيدات يسألن عن التعدد وعن المهر وتمنت إحداهن أن تتزوج سعودياً لتحصل على ثلاثة كيلو جرامات من الذهب كمهر وقلت لها حتى لو كنت الزوجة الثالثة أو الرابعة؟ وعادت وتراجعت وضحكنا جميعاً ولا أعرف إن كنت مقنعاً أم لا لكنهم في نهاية المحاضرة طلبوا نسخاً من القرآن المترجم واتصلت بالملحقية العسكرية طالباً نسخاً من القرآن واندهشوا متسائلين هل جئت لدورة العمليات المشتركة أم جئت داعياً؟..

ورفضوا حرصاً عليّ.. لكن صديقاً أرسل لي بصفة خاصة

عشرة مصاحف وزعتها على بعضهم ووعدت البعض الآخر وما زال ينتظر.

وخلال الدورة رُقيت لرتبة عميد.. وطلبت من قائد الكلية الوطنية أن يضع الرتبة على كتفي بحضور زوجتي.. وهو تقليد أمريكي.. ووافق سعيداً.. وحضرت وفاء وأختها.. ووضع الفريق كنث الرتبة على كتفي الأيمن.. ووضعت وفاء الرتبة الأخرى على كتفي الأيسر.. وقُدمت لها باقة ورد ولكن لا أكل ولا مشروبات فقد كنا في رمضان. وعندما تتحدث وفاء عن أجمل اللحظات في حياتها.. تقول إن تلك اللحظة واحدة من أجمل أيامها.. وأظن أنها المرأة السعودية الوحيدة التي فعلت ذلك لأني ربما السعودي الوحيد نصف العاقل أو نصف المجنون وغدا اسمي منذ تلك اللحظة الأدميرال عمر.

وكما كنا نفعل دائماً في ترحالنا فقد صنعنا صداقات مع من نستطيع من الناس والعائلات وكان أحد تلك العائلات السفيرة السابقة سوزان وزوجها السيد تيري وقد دعتنا السيدة سوزان إلى إفطار رمضاني وكان آخر عمل لها قبل أن تتقاعد سفيرة في تونس..وتعرف تقاليد رمضان في البلاد العربية وتعرف أكثر وجع الغربة وصنعت لنا إفطاراً جميلاً.. وقالت إنها أحضرت لنا حلوى شرقية خاصة بهذه المناسبة عن طريق صديقة تونسية.. وعندما

قدمت لنا الحلوى لم تكن سوى حلوى «الطحينية» التي لا أفضلها كثيراً.

لكن اللقاء كان جميلاً وتحدثت عن البلدان التي عملت بها وأرتنا البوم صورها وتجولنا في منزلهم الواسع بعد أن غادره أولادهم وكانا يفكران في بيعه والرحل إلى مسقط رأسيهما في سفوح الروكي.

والذكريات هنا كثيرة وقريبة وطرية والشعب الأمريكي ودود وجميل ومتفتح ولا حسابات وتعقيدات لديه وعندما انتهت الدورة تفرقنا ذهب بعض الزملاء إلى العراق وآخرون إلى أفغانستان وذهبت زميلتي العقيد بحري ميشل إلى واشنطن.

وحزمنا حقائبنا وغادرنا إلى واشنطن ومنها إلى نيويورك ثم جدة.. وكان في وداعنا دون أن ندري السفيرة سوزان وزوجها.. وكانت لفتة رائعة وحميمة وما زلنا على اتصال معها عبر البريد الإلكتروني الذي وثق تواصل الأجناس.

وعدت ونسيت الدورة وذكريات تلك الأيام.. وذات مساء كنت أتابع أخبار القراصنة الصوماليين في المحيط الهندي.. وكانوا قد اختطفوا سفينة مدنية تحمل العلم الأمريكي.. لكنهم هذه المرة لم يفوزوا بالغنيمة مثل كل مرة.. فقد اشتبكت معهم حاملة الطائرات المروحية الأمريكية (USS BOXER) ولم يكن قائدها سوى زميلتي

في الفصل العقيد ميشيل التي كنا قد دعوناها إلى شقتنا ذات مساء وقدمنا لها المهلبية والفتوش والكباب والتي كانت أيضاً قد رقيت إلى رتبة أدميرال وأصبحت قائداً لحاملة طائرات مروحية طاقمها يفوق الثلاثة آلاف رجل وامرأة.

وقد أرسلت لها رسالة تهنئة ونحن الآن على تواصل عبر الفيس بوك (Face book).

ومن قال إن العالم ليس صغيراً وصغيراً جداً.

المياه لاتعود إلى المنابع

عدت إلى الرياض.. وبقيت وفاء في جدة.. وعدنا نطرح موضوع التقاعد مرة أخرى واتفقنا رغم ممانعة وفاء أن أطلب التقاعد. شريطة أن أبحث عن عمل ووعدتها دون آمال كبيرة. فالعسكري المتقاعد عُملة لا قيمة لها والقوات المسلحة المسؤول الأول عن هذا الإنطباع حيث تبقيه هذه المؤسسة غامضاً ومعزولاً وبعيداً عن المجتمع.. وكثيرون لا يعرفون أن الضابط السعودي ينال أعلى تأهيل في العالم ويدير أعقد المنظومات الفنية ويجيد أكثر من لغة ولكن من يعرف ذلك.؟

كنت قد فاتحت عبر صديق منظمة غير حكومية للعمل فيها متطوعاً أو بدوام جزئي.. ورحبت هذه الإدارة. ولكن عندما قررت أن أقدم طلب التقاعد اخترت مرة أخرى للمشاركة في تمرين لقوات درع الجزيرة المقام في دولة عمان.. وقد كُلفت بأن أكون قائداً للجزء البحري منه.. وأن أحضر الاجتماعات التنسيقية في الرياض ومسقط واستمرت تلك الاستعدادات والاجتماعات ستة

أشهر.. وكانت تجربة رائعة لأكتشف سلطنة عمان وأعايش شعب عمان الكريم وتاريخ عمان عن قرب.. وكل قطعة أرض في عمان شاهد على تاريخ حي، قلاعها وجبالها.. كهوفها وشواطئها النقية البكر المباحة للكل.. وليست كشواطئنا المحاصرة والمحاطة بالأسوار والحبيسة والتي لم تعد.

زرت صلالة ونزوي وبهلاء والمضيبي وصحار وقلعة العوامر الذين ما أن قرؤوا أسمي حتى قالوا (عامري)؟ وتطوعوا أن يزوجوني وأن يمنحوني أرضاً شريطة أن أقيم لديهم وقلت لهم أن العامري لا يخون العشرة.. وزرت جزراً منسية ومجهولة كجزيرة مصيرة والحلانيات ورأس مسندم المتحكم في مضيق هرمز العابق بقلق التاريخ ونشوة الجغرافيا وصعدت الجبل الأخضر معقل الثوار في الستينات ورأيت شجر اللبان، وكيف يصنع البخور وكيف يمنح أسماء تدغدغ المشاعر ورأيت الخناجر الغالية وتذوقت الحلوى العمانية بأنواعها ونكهاتها المميزة. عمان دولة خليجية لكنها مختلفة في كل شيء وغنية بكل شيء وحريصة على ثقافتها وماضيها وتخطو واثقة نحو مستقبلها دون ضجيج وهي ملتقى حضارات وشعوب وبوابة على المحيط الهندي وبحر العرب ويتحدر غالبية أهلها من العرب والبلوش ومن زنجبار.. عندما كانت سواحل أفريقيا الشرقية سواحل عمانية.. وأجزاء من بلوشستان أيضاً أرضاً عمانية.

وقضينا أياماً في البحر على ظهر السفينة السلطانية (المبروكة) نقاتل عدواً مفترضاً وندفع غزواً لم يقع.. ونطلق صواريخ تصيب أهدافاً طافية في الماء ثم تهوي إلى الأعماق.

ولعل ذلك كان خاتمة عهدي بالبحر.. البحر الذي أمضيت على سطحه ربع قرن وأكثر وخبرته أكثر من اليابسة.. وخاتمة عهدي بالقوات البحرية التي التحقت بها قبل ثلاثين عاماً قروياً يتعثر في أبجديته وخجله وخوفه من العالم ويحتمي بالرفض لكل شيء وغادرتها أدميرالاً يقود عشرين سفينة في خليج عمان، أدميرالاً غادر قريته ذات صبيحة دون وعد بشيء وسيعود إليها أيضاً فقيراً من كل شيء عدا التجربة التي ستغدو بعد التقاعد دون قيمة. وختمت هذا التمرين وعدت ودفعت بطلب ورقة التقاعد.. ودفعت بتوكيل لزميل لينهي الإجراءات الإدارية وغادرت الرياض للمرة الأخيرة وغادرنا إلى ماليزيا أرض الشمس والمطر.. وبعد أسبوعين فقط أبلغت أن الموافقة على تقاعدي قد صدرت.. كأن أحداً ما كان ينتظره.. أو لعله كان في الطريق.

كعُرف عندما يتقدم أحد بطلب التقاعد «ونادراً ما يطلب أحد» يُستدعى إلى مكتب القيادة ويُسأل لماذا طلب التقاعد؟ وهل هناك أسباب دعته لذلك..؟ وهل بالإمكان تجاوزها..؟ وأحياناً ترفض.. إلا أنا.. وكان أسرع تقاعد يُوافق عليه كما يقول الرواة. وتأكد لي

حينها أن قراري كان صائباً.. وأني لو لم أفعل لفعلوا ولهم الحق كل الحق. وعندما أبلغت بالتقاعد الذي كنت أنتظر.. عدت أسترجع مسيرتي وأرى من مكان بعيد ومحايد أين كانت نجاحاتي وإخفاقاتي.. وما الذي فعلت وما الذي كان يتوجب علي أن أفعل.. وهل كانت البحرية التي اخترتها في زمن الخيارات المتاحة خياراً جيداً؟ وحاولت أن أنظر للنصف الممتلئ من الكأس وأظن أني مدين لها بالكثير والكثير جداً رغم بعض المرارة فقد علمتني وطوفت بي العالم.. ومنحتني معارف وصداقات بمساحة الكون.. ولا أظن أني أنا أيضاً بخلت عليها لا بالعمر ولا الصحة ولا الاستقرار.. وإذا كان هناك من شيء يؤسفني فهو أني غادرتها وأنا أعتقد أن لدي الكثير مما قد أقدمه.. وما يؤسفني أكثر هو أن كل المعارف البحرية والعسكرية التي تعلمتها وأجدتها ستغدو منذ الغد دون جدوى..وعليَّ أن أنساها وربما للأبد. والمحزن أيضاً هو أنه في كل بلاد العالم يظل ذلك الارتباط العضوي بين المتقاعد والمؤسسة العسكرية من خلال الأعياد والمناسبات والندوات وفي الاستفادة من خبرات البعض وهي ثرية وكبيرة.. عدا هنا.. فهي وظيفة لا أكثر.. وما أن تُغادرها حتى يُقطع ذلك الحبل السري ويغدو كل ما تعلمت غير قابل للاستخدام. وكنت أعرف ذلك وكنت مهيئاً له.. وكان الشعور بالفراق أقل ألماً.. والرحيل دون

تلفت وغادرتها كأني عائد من سفر قصير وليس رحلة عمل أخذت معها أجمل أيام العمر.

وقد يسألني أحدكم بماذا شعرت وأنا أعود إلى بيتي؟ وأقول لا شيء.. نعم لا شيء.. غير أن عادات وطباع ومكتسبات ثلاثين عاما لا يمكن أن تمحى بتلويحة وداع والعمر كالنهر لن يعود أبداً للمنابع.

هاربون من كفلائنا

ها قد تنقلت معكم في محطات مختارة من العمر وهي ليست كل العمر ولا حتى بعضاً منه، ولكن هل قلت لكم ما يبهج؟ منذ البدء قلت لكم إن أجمل حكاياتي تلك التي لن تقال تلك التي دفنتها في أقصى أقاصي القلب وأقفلت عليها وطوحت بمفتاح ذلك القفل بعيداً في الفراغ، ولا تسألوني لماذا لأني كمثلكم.. لي عوالم وتاريخ سري وأقنعة أتجمل بها وأحتمي خلفها وهكذا نحن أو هذا أنا على الأقل.. إني أعترف.

وهل ما ذكرت هو كل الحصاد؟، لا، لا، فقد أغفلت الخيبات وأخفيت الانكسارات وزورت الهزائم وما أكثرها لأبدو أجمل، لكن ما يغفر لي هو أيضاً أني منذ البدء قلت لكم وقبل أن أسرج القلم إني قد أكذب عليكم كذبات صغيرة أتجمل بها لكن هذه الكذبات لم تؤجل طلوع الشمس ولم تغير دوران الأرض، ولم تعبث بترتيب الفصول. وحاولت، ولا أعرف إن كنت نجحت، أن لا أكون واعظاً أو ناصحاً أو مبشراً بشيء، تلك ليست بضاعتي، حاولت أن أكون أنا فقط، وحاولت أن أقول ـ إن كنت

نجحت - إنه لا تجارب لي تتلى ولا درب يُمشى عليه، إنها فقط حكايات من العمر الذي لم يكتمل. وهل قلت لكم كل شيء.. بالطبع لا فقد كتبت من الذاكرة وللذكرى، كتبت بعض ما أتذكر وربما أعود إذا تذكرت، لكن الحياة علمتني أن النسيان هو سيد الأشياء وبرحمته نمضي ولا نتوقف. وهل أخذتكم معي حيث ما ذهبت؟ لا، لا. فقد ذهبت أبعد كثيراً مما قلت هنا ورأيت أكثر وعرفت وسمعت أكثر، لكنه الوقت والنسيان وفقر الخيال. فقد نسيت أن أذهب معكم إلى القاهرة المدينة التي أشعر فيها بالألفة والأمان والسلام كلما ذهبت أكثر مما أشعر به في أي مكان في العالم، لم أتحدث عن الإسكندرية وجمالها الغابر ولا سيناء والنيل وبور سعيد والسويس والغردقة والقناة التي عبرتها ثلاث مرات شمالاً وجنوباً بتجربتها الفريدة، تجربة عبور البحر يشق الصحراء كغواية. ولم أتحدث عن الفيوم والإسماعيلية وغيرهما من بر مصر، ربما لأني أشعر أنكم كلكم تعرفون مصر وذهبتم إليها، إنها داركم أنتم، دار كل العرب. ولم أتحدث عن بريطانيا، عن لندن المدينة العجوز ولا عن الهايد بارك ولا ضياعي في سوهو على خطى صديقي كولون ولسن، ولم أتحدث عن تايلند أو مانيلا أو فيينا أو حتى إسطنبول وبيروت وعمان وروما وجنيف والبتراء والقيروان، لأني عبرتها كسائح ولم أحمل منها ولها ذكريات عدا القليل من الصور. ولم أتحدث كيف عبرنا أنا ووفاء جسر البحرين على

أقدامنا ذات ليل عندما وصلنا المنامة قادمين من إسطنبول ولم نجد متاعنا فأقسمت ألا أنام في المنامة، ورفَضَت سيارات الأجرة أخذنا إلى الخبر قريباً من منتصف الليل، فأخذت بيد وفاء ولم يكن لها خيار إلا الرضوخ، ومشينا طويلاً على الجسر تحفنا مياه الخليج في رطوبة تقرب المائة حتى أخذتنا مركبة خاصة بعد أن تأكد قائدها أننا لسنا متسللين أو هاربين من كفلائنا وأننا نحمل جوازات سفر وأننا لسنا من أبناء السبيل. ولم أتحدث عن بنقلاديش وقد أمضيت بها سنتين ولا باكستان أكثر وقد أمضيت بها خمس سنوات ولا فرنسا وقد أقمت بها عاماً على فترتين ولم أتحدث عن أمريكا بما يكفي.. فقد عشت بها وكان لنا جيران وأصدقاء وحكايات لم تنته حتى اللحظة.

وحتى القرية والطفولة تحدثت عنها كأني أتخلص من إرث ثقيل، كأني أتخفف لأمضي أسرع وأبعد قبل أن أنسى، تحدثت عنها وعن العائلة قليلاً ربما لأني أراها كلها بعيدة كالمجرات، وربما لأن ذلك العالم هو عالم السكون ولا شيء فيه يغري بالحديث. ولم أتحدث عن بدايات الكتابة، ولا عثرات القلم، ولم أكتب عن ليالي الأحلام الجميلة في النادي الأدبي بجدة عندما كنا نسهر لمطلع الفجر نقرأ لبعضنا نصوصاً موغلة في الاغتراب والتجربة، كنا نحاول ـ مع أصدقاء حالمين مثلي ـ أن نغير العالم،

لكن لا شيء تغير في العالم، نحن من تغير، لقد هُزمت أحلامنا وتعثرت كلها ونحن كبرنا دون حصاد إلا الحنين.

لقد أردت أن تكون هذه الكتابة مذكرات ثم عدلت وقلت إنها سيرة، ثم عدت وقلت إنها سيرة لم تكتمل، وعندما اكتشفت أنها أبعد ما تكون عن المذكرات، ولا تعدو أن تكون ذكريات من هنا وهناك عدت وأعطيتها اسماً آخر.. اسماً نصفه مسروق(*).

ولكن لماذا توقفت هنا، هنا عند مفصل التقاعد؟ ربما لأننا اعتدنا أن ينتهي كل شيء في حياتنا عند التقاعد عدا الانتظار.وربما لأن الحياة التي سأتحدث عنها بعد التقاعد مضت وتمضي بشكل مختلف ولغة مختلفة وإيقاع مختلف، وقد أعود حينها وقد أقول عنها مذكرات.

ولكن ما الذي بقي علي أن أقوله ولم أقله؟ كثير كثير غير أن هذا يكفي، يكفي.

ثم ما هي الأشياء التي أشعر نحوها بالندم؟ والأشياء التي لن أفعلها لو عاد بي العمر؟ والأشياء التي سأفعلها؟

وأقول لكم وبصدق لا شيء، لا شيء أشعر نحوه بالندم والفقدان والشعور بفداحة الخسارة عدا العمر وأن الحياة لو عادت

(*) إشارة لرواية مراكيز «ليس للجنرال من يكاتبه».

بي لأعدتها كما هي كما هي بأخطائها وبكل محاولات الفشل والنجاح وبكل ما فيها حتى محطات الألم والندم واجتراحات الصح والخطأ.

لكن الحياة لا تعود ولا نحن ولا تُقلب ساعة الرمل لتعود من جديد.

وإذا كان لي ما أقوله قبل أن أطوي الصفحة الأخيرة هنا هو أن أعتذر من وفاء اعتذاراً بحجم هذا الفضاء إن كنت نسيتها كثيراً في غمرة الأنا والحديث عن الذات، رغم أنها كانت هناك وكانت هي محور كل شيء. وما كنت لأكون هنا، وما كنت لأكتب هذا لولا أنها كانت وما زالت معي، رفيقة لا تعرف من كتاب العمر سوى الغفران ولا تعرف من مفردات الحياة سوى العطاء دون حدود ودن انتظار.

المؤلف

- عمرو العامري: مواليد قرية القمري بمنطقة جازان.
- سافر في بعثة دراسية إلى الباكستان وعاد منها ضابطاً بحرياً.
- تدرّج في الوظائف والرتب العسكرية حتى تقاعد مبكّراً برتبة عميد.
- حاصل على شهادتي ماجستير في كل من الدفاع واستراتيجيات الدفاع.
- للتواصل مع الكاتب عبر البريد الإلكتروني:

umroalamery@hotmail.com

الفهرس



هذا الكتاب

أن تتقاعد يعني أن لا تنتظر شيئاً من أحد لأنه لا أحد ينتظر منك شيئاً تقدمه له وليس لديك ما تبيعه للناس في مجتمع يقوم على المنفعة. . ولا نوادِ ولا أنشطة ولا مراكز أبحاث تقدم فيها خلاصة ما تعلمته في ثلث قرن، وكم هو مؤلم عندما ترى جنرالاً كان يقود الفيالق وقد انزوى في مكتب عقار يرتّل ما تبقّى من أيامه.

